

المثال والتحول في شعر **المتنبي**

وحياته

د. جلال الخطاط



دار إبراهيم العربي

بَيْرُوت ، لِبْنَانٌ





المثال والتحول في شعر
المتنبي وحياته



المثال والتحول في شعر
المنتخب
وحياته

د. جلال الخياط



دار المرائد العربيي
بـيروـت ، لـبنـان

جميع الحقوق محفوظة
للطبعة الثانية
١٤٠٧ - ١٩٨٧ م

أجازت طبعه دائرة الرقابة العامة
ودائرة الشؤون الثقافية العامة
بوزارة الثقافة والاعلام العراقية



دار "الراشد العربي" - بيروت - لبنان
من.ب: ٦٥٨٥ - تلفون: LE ٤٣٤٩٩ راشد

مقدمة

ليتم التواصل الزمني والفكري بين الاجيال المتعاقبة، تتمثل خلاصة جيدة لأعمال الماضين وما أضفوا على التجربة البشرية من اسهام وانجاز وتطوير ، وندرس ونبحث ونلح في التأمل ، ونعرف ونهتدى ونسير . وأظن أن أشعار المتنبي وأحداث زمانه ما زالت مادة لموضوعات كثيرة لم تستوعبها الدراسات التقليدية بعد ، وان أكد كتاب في قضايا معينة معروفة ، افتقرت احيانا الى التعليل والاحداث بالاسباب والبواعث ، وادراك ما دفع الشاعر الى اتخاذ هذا الموقف او ذاك .

والمتنبي ظاهرة متكاملة في عالم الشعر العربي ، لها ابعاد وأطر خاصة ومدى يتطلع الى اضاءة وتوضيح ، يزخر بفيض لا ينتهي من قضايا أدبية ، تبدو جديدة ، رغم ما ألف وكتب عن الشاعر ، ونعجب أنها لم تحظَ ، من قبل ، بانتباه وعناية . وظل شعراء كبار عبر العصور ، بموهبتهم العالمية وابداعهم المتجدد مع الزمن ، رجالا نظموا الشعر ! ولكن المتنبي ، ظاهرةً ، لا يماثله أحد بتفرده وتميزه ، يتحد شعره وتاريخ حياته ، اخحاداً غريباً ، يصعب ان نرى قريناً له ، ينضح أصالته فيها ينظم ويصدر من أفعال ، وتصح لديه الحقيقة النقدية بضرورة دراسة الشعر من خلال حياة الشاعر و موقفه من عصره .

ويحدد التكامل أشعاره وحياته بفصول أربعة ، الاول : نشأته وصباه

والغموض الذي يحيط به ورحلته الى البدية ، واتصاله بالاعراب ، وسجنه وعلاقته ببعض المدوحين . والثاني: لقاوه سيف الدولة ، واشتراكه في الحروب والغزوات ، وظهور طبقة من الحсад والمناوئين ، وتحديه ، فيما بعد ، للامير ومجلسه ، وخروجه من حلب . والثالث: ذهابه الى مصر بحثا عن سلطة ولالية ، وخيبته هناك ، وهروبه على نحو يزري بقصص المغامرات . والرابع: يبدأ بنجاته من جند كافور وعودته الى بغداد ، وما جرى له من احداث مع الشعراء المناوئين ورجال العصر الذين رفض ان يمدحهم ، وجلالته في فارس ، ثم عودته ، ومقتله في طريقه الى الكوفة . احداث تتساق باجزائها الصغيرة والكبيرة ، وتهيء مادة مسرحية جيدة لواقع عصر مثير .

وتتميز موضوعات يكتبهها الباحثون عن المتنبي وأشعاره بقدرتها الهائلة على التببيب والتحديد والانفصال الشكلي عن الاطار العام ، بالرغم من العلاقة القائمة . ولكنها تصعب في الاهتداء اليها مؤشراً لفهم الشاعر وعصره ، ولذا يبقى المتنبي ، مع البحوث الكثيرة التي كتبت عنه ، مجھولاً في بعض قضياته ، ومصدراً ثرأً يد الدارسين بموضوعات لا تتضمن: مطالع قصائده . جبه للمجد . نسبة . كبرياؤه وطموحه . آراءه الدينية والسياسية . مدحه . رثاؤه . هجاؤه . مزجه بين القديم والحديث في شعره . موقفه من الحياة والمرأة والفكر والانسان . مفهومه للزمن . حсадه . ما أغفله الشراح من قصائده . اسلوبه . شاعريته الخ ...

ويحاول هذا الكتاب أن يام بجانب من المتنبي - الظاهره: تأثيره الواضح في النقد الأدبي ، وقضية الحسد التي تتفوق ما يتخيّل الدارسون ، وأي باحث يعرف ان حсадاً للمتنبي كثرين رافقوه في كل مكان ، ولكن أن يقرر اولئك الحسد مسيراً شاعريته ويسدون عليه سبل طموحه ومواهبه وحركاته ، ويكون تأثيرهم فيه شاملاً تماماً ، ويترجون بأحداث حياته اليومية وينتهبون أحلامه وكوابيسه ، ويشعرون عواطفه واحاسيسه ، ويلاحقوه حتى مقتله ، وما بعد مقتله! فمسألة تستحق وقفة وبحثاً ، واذا

بها تتكامل تكاملاً درامياً مكثفاً، وكأنها من فعل خيال مؤلف مسرحي معين، وليس واقع شاعر ومساته.

وقضية الحكم عنده وما شاع عنه بأنه شاعر حكم تتطلب درساً وانارة، لأن المتنبي ابتدع شكلاً من الرمز في الحكم للتعبير عن معانٍ لا يستطيع ان يؤديها أداءً مباشراً، فهو ليس بشاعر حكم مجردة ولكنَّه صاحب اسلوب خاص في الحكم، وان أردنا وأصررنا ان يكون شاعراً حكيمًا ففي موقفه من الزمن ورثائه للانسان وصراعه مع الدهر.

وشغف المتنبي بالمعارك والغزوات والاجماد والبطولة، واتصافه بنزعة حربية تسسيطر على ما ينظم من اشعار، يستدعي بحثاً عن اقتران الشعر بالفروسية عنده، وكيف يصبح شاعر كبير داعية حرب.

وتقوم قضية اخرى غريبة تمثل في العلاقة بينه وبين كافور، واتخاذ الشعر وسيلة للوصول الى الحكم، ومشاركة المدوح السلطة، وتأثير الشعر في التاريخ حين يسدل ستاراً كثيفاً على حقبة تحول فيها عبد مملوك الى حاكم مطلق.

ولا بد ان نعرف شيئاً عن موقف المتنبي من المرأة ودورها في حياته، وهل يصح ما تناوله الباحثون بأنه بعيد عنها، زاهد فيها، تعشق المجد وأحب القتال؟

وانفرد الشاعر، في شخصيته وآماله ومواهبه وردود أفعاله، أورثه الاغتراب والتوحد، وتفضح أشعاره عن الانفصال الذي تم بينه وبين مجتمعه ومدوبيه وأحداث زمانه، وهو يضع لنفسه دوماً مثالاً، يتتحول عنه أوليه، ففي مطلع شبابه يريد أن يحقق مجدًا ورفعة باشاعة اهداف معينة ويلتئف حوله الاعراب، ويسجن، فيترك ذلك. ويتخذ من سيف الدولة مثلاً للرجولة والفروسية والمروءة، فيحوله حсадه عنه، ويدرج في أشعاره خلاصة تجاربه فيحيل الشراح عالمه الفكري الخاص المتكامل أبياناً

مفردة او انصاف أبيات ، يسمونها حكماً ، ويؤمل من كافور سلطة ويفشل ، ويصبح السيف رمزا للقوة والأس ، ولكن لا يستطيع به وحده ان يغزو العالم . ويعيش الشاعر محنته .

أي جانب من جوانب اي الطيب يمكن أن ينتهي بأنه ذاتي وغريب وخاص بصاحبـه . واعتراضـتني في هذا الكتاب مشكلة النص الشعري ، وبالرغم من مصادر ومراجع اشرت اليـها ، تبقى الاشعار في الطلـيعة ، ولذا كثر التـمثل بها وبدأ يطغى على الكتاب ، فأضطررت ان اقلـل منه ، مع اهمـيته ، ليتم الانسجام بين النص والبحث ، ووددت لو لم أفعل ، وان تأخذ الاشعار الكثـيرة مكانـها .

جلال الخياط

كلية الاداب - بغداد



المتنبي والنقد الأدبي

تنتهي بالمتنبي قضايا نقدية، وتبدأ أخرى، وكان لأصالته وتميزه وأسلوبه وموافقه واعتداده بنفسه وآرائه السياسية والشخصية تأثير في النقد الأدبي.

وتمثلت في ديوانه خلاصة للتراث العربي في الشعر والنقد منذ عصور أوغلت في القدم وبسبقت الإسلام بما لا نستطيع أن نحدده من سنين، وحين أصبح المتنبي وبعده أبو العلاء من أعلام المكانة السامية التي حظي بها الأدب العربي في القرن الرابع الهجري ومطالع ما يليه، تدعمها دراسات وبحوث ومؤلفات جديدة، كاد الشعر يضرب في مجالات من الريادة واسعة وأساليب في القول غير مألوفة وعلاقاتٍ بين الألفاظ جديدة ودالة، الا ان بداية اخسار المظاهر الحضارية والضعف الذي اعتى الدولة العباسية جعل تلك الحركة، والمتنبي صاحبها، تتعرّ في مجال تطورها الطبيعي، والا كان يصح لدنيا في عالم الشعر والنقد أن نقول: عصر ما قبل المتنبي وعصر ما بعد المتنبي.

كان ابو الطيب ظاهرة وعلامة ومنطلقاً جديداً للنقد الأدبي وحدّاً فاصلاً بين النظريات النقدية السابقة وما استجد في عالم النقد من آراء وبحوث.

ولم يقصد المتنبي ان يكون مؤثراً في عملية النقد الأدبي، على نحو

مباشر ، الا أن شعره أسهم في ذلك وليس للشاعر حدود في إبداعه وقدرته على التطوير والتكامل النقدي وفاعلية المسيرة الأدبية .

ظهر المتنبي وذاع شعره فانتهت قضية نقدية دار حولها نقاش طويل ولغط وجدل في تقسيم الشعر متكلفاً ومطبوعاً ، وإذا بديوانه يتعدى حدود ذلك التقسيم المفتعل في الحكم على الشعر بطريقة نظمها لا بقيمته الجمالية وعمقه وتأثيره في القارئ ، فالمتنبي جمع ، بمفهوم مفني الشعر الى متكلف ومطبوع ، بين النوعين وبين وقف النقد منه وقفه موضوعية ألفاه يلغى هذه القضية بقصائد نأت وبعدت ورفضت اي تقسيم مصطنع .

واستمر النقاش طويلاً : كيف يبدأ الشاعر قصيده؟ وهل له ان يفتحها بغير الطلل؟ وهل المقدمة الطللية تقليد لا مفر للشاعر ان يقتفي الجاهلين في اتباعه؟

ولم يقل أحد إن الجاهلين أنفسهم لم يصرروا على انتهاج هذا التقليد لأن مئات من القصائد الجاهلية لم تبدأ بالطلل ، ومنها معلقة عمرو بن كلثوم :

ألا هبِي بـصـحـنـك فـاصـبـحـيـنا
وـلا تـبـقـي خـورـ الـانـدـرـيـنـا

حتى اذا ما دعا ابو نواس الى ان يعبر الشاعر عن أحاسيسه الحقيقية وألا يكون متبعاً أو معتبراً عن تجربة لم يعرفها في حياته ، ثار عليه نقاد ودعوا الى ضرورة افتتاح القصيدة بالطلل ، حتى ظهر المتنبي فأبطل أي نقاش حول المسألة وكان في مطالع قصائده غير متبع لقدم أو جديد ، وترك لكل قصيدة من قصائده ان تبدأ البداية المناسبة لها ، ومن مطالعه :

أـنـاـ الـهـنـئـاتـ لـلـأـكـفـاءـ وـلـنـ يـدـنـيـ مـنـ الـبـعـدـاءـ

★ ★ ★

جللاً كما بي فليكُ التبريرُ
أغذاءُ ذا الرشأ الأغنِ الشيـخ

★ ★ ★

أحادٌ أم سداـس في أحـادـ
ليـلـتـنـاـ المـنـوـطـةـ بـالـتـنـادـ

★ ★ ★

أرى ذـلـكـ القـرـبـ صـارـ اـزـورـارـاـ
وـصـارـ طـويـلـ السـلامـ اـخـتـصـارـاـ

★ ★ ★

نـعـدـ المـشـرفـةـ وـالـعـوـالـيـ
وـتـقـتـلـنـاـ المـنـوـنـ بلاـ قـتـالـ

★ ★ ★

ذـيـ الـعـالـيـ فـلـيـلـعـونـ مـنـ تـعـالـ
هـكـذاـ هـكـذاـ وـالـأـ فـلاـ لـاـ

★ ★ ★

كـدـعـواـكـ كـلـ يـدـعـيـ صـحـةـ العـقـلـ
وـمـنـ ذـاـ ذـيـ يـدـريـ بـمـاـ فـيـهـ مـنـ جـهـلـ

★ ★ ★

إـيـنـ أـزـعـمـتـ إـيمـاـذاـ الـهـمـاـمـ
نـحـنـ نـبـتـ الـرـبـىـ وـانـتـ الـغـامـ

★ ★ ★

إـذـاـ كـانـ مـدـحـ فـالـنـسـيـبـ الـمـقـدـمـ
أـكـلـ فـصـيـحـ قـالـ شـعـراـ مـتـيـمـ

★ ★ ★

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنفع بما دون النجوم

★ ★ *

فؤاد مَا تسلّيَهِ المدامُ
وَعَمْرٌ مُثْلُ مَا تهْبُ اللئامُ
ولم يقتن الشاعر المتنبي، لتميزه وتفرده وتكوينه الخاص ، بأي شاعر آخر ، وما اكثـرـ الشـعـراءـ الـذـينـ زـاحـموـهـ ، فـأـوـقـفـ ، دون ان يقصد ايـضاـ ، عـودـةـ ما دـارـ عنـ الـبـحـرـيـ واـيـ تـامـ منـ مواـزنـاتـ وـمعـادـلاتـ.

وما عاد للخصوصـةـ الشـدـيدـةـ الـتـيـ تـنـشـأـ بـالـمـقـارـونـةـ بـيـنـ شـاعـرـينـ اوـ اـكـثـرـ مـثـلـهاـ نـجـدـ فـيـ العـصـرـ الـأـمـوـيـ بـيـنـ جـرـيرـ وـالـفـرـزـدقـ ، شـأنـ فـيـ الـقـرـنـ الـرـابـعـ لـأـنـ المـتـنـبـيـ لـمـ يـدـعـ لـأـحـدـ أـنـ يـكـونـ نـدـاـ لـهـ فـيـشـغـلـ النـاسـ ، عـلـىـ عـادـتـهـ ، بـأـيـ أـشـعـرـ ، كـانـ وـحـيدـ زـمانـهـ فـيـ الشـعـرـ ، وـلـأـنـ النـقـدـ الـأـدـيـ الـجـيدـ لـاـ يـلـجـأـ إـلـىـ اـسـمـاءـ التـفـضـيلـ فـيـ الـحـكـمـ عـلـىـ الـمـبـدـعـينـ الـحـقـيقـيـنـ بـأـحـسـنـ وـأـرـوـعـ أـوـ أـنـعـسـ وـأـرـدـأـ ، فـتـلـكـ الـاسـمـاءـ صـفـاتـ دـائـمـةـ ، وـهـيـ إـلـىـ تـعمـيمـ الـاـحـكـامـ أـقـرـبـ مـنـهـاـ إـلـىـ الرـأـيـ الـمـوـضـوعـيـ الـهـادـيـ الـمـحدـدـ وـلـأـنـ قـيـامـهـ عـلـىـ أـسـسـ ثـابـتـةـ ، غـيرـ اـنـطـابـعـيـةـ شـخـصـيـةـ ضـرـبـ مـنـ الـمـحـالـ.

وبروز انسان متميز في مجال ما لا يعني احتكاراً لعلم الابداع ، وكثيراً ما يتنهج هواة الخصومة والنقاش بوجوده ليسدوا الطريق امام مبدعين جدد وકأن جـالـاتـ الـابـتكـارـ لـاـ يـكـنـهـاـ انـ تـضـمـ جـوـعاـ منـ السـاعـينـ الـىـ تـجاـوزـ الـقـدـرـاتـ الـبـشـرـيـةـ فـيـ التـجـدـدـ الدـائـمـ ، وـهـذـاـ مـاـ أـثـبـتـهـ المـتـنـبـيـ حـينـ اـسـتـطـاعـ انـ يـتـفـوقـ عـلـىـ كـثـيرـ مـنـ الـماـضـيـنـ . الاـ اـنـهـ أـيـضاـ اـصـبـحـ ذـرـيعـةـ لـإـسـقـاطـ مـنـ حـاوـلـ انـ يـكـونـ لـهـ مـكـانـ تـحـتـ شـمـسـ الشـعـرـ فـيـ عـصـرـهـ ، وـمـاـ بـعـدـ عـصـرـهـ ، دونـ انـ نـنـحـوـ بـالـلـائـمـ عـلـيـهـ فـلـمـ يـكـنـ لـهـ فـيـ هـذـاـ وـذـاكـ يـدـ اوـ تـصـمـيمـ .
وـأـنـهـ المـتـنـبـيـ قـضـيـةـ تـقـسـيمـ الشـعـراءـ طـبـقـاتـ وـمـرـاتـبـ تـبـعـاـ لـمـقـايـيسـ تـحاـوـلـ

ان تكون موضوعية او لنقد انطباعي - تأثري قائم على ذوق الناقد ومزاجه ، فلو حاول ابن سلام آخر في القرن الرابع او الخامس ان يضع الشعراء في مراتب فيكون المتنبي في الأولى فمن يضع في الثانية والثالثة .. الخ ، فالبون بينه وبين معاصريه شاسع واسع ، فضمرت قضية تقسيم الشعراء طبقات وما عاد لها مكان واضح في النقد بعد المتنبي ، ولكل شاعر عالمه ومذاقه ومزاجه ومواهبه ومدى ما تصل اليه قدراته .

وتضاءل مجال الصراع بين القديم والجديد ، والتعصب لهذا وذاك والغاء الحاضر للماضي او طغيان الماضي على الحاضر ، وأي صراع يمكن ان يبقى ؟ وقد مزج المتنبي في شعره بين القديم والجديد واستطاع ان يفرض اسلوباً خاصاً هو خلاصة للقديم والجديد ، ولم يجرؤ أحد ان يقول : لو أدرك المتنبي يوماً واحداً من الجاهلية ما فضلته عليه احداً . فالحكم على الشاعر وابداعه بيوم مولده معيار نقيدي ساذج ومرفوض . ولم يُحاجِ المتنبي بما عُدَّ ضعفاً لدى أبي تمام حين قيل له : يا فتي ما أشد ما تتكىء على نفسك ، وكأن الاتباع والتقليد من شروط الابداع ، فصار اتكاء المتنبي على نفسه أحد أسرار عقربيته .

هذا الصراع بين القديم والجديد ، وإن قدم دراسات وآراء أثارت وأفادت ، كان هدراً حقيقياً لطاقة الشعراء شلّ حقباً طويلاً من قدرات المبدعين والنقاد فألغاه المتنبي ، وارثاً شرعياً حقيقياً للتراث الشعري ، بجدديه وقديمه ، وكأن تاريخ الشعر العربي ، منذ أن وقف الشاعر الجاهلي واستوقف وبكي واستبكى ، قد تبلور فيه .

ولكن لا بد للنقاد والقراء من صراع ونقاش وجدل فقدم المتنبي شعره بدليلاً فقامت الخصومات حوله وملأ الدنيا وشغل الناس :

أنام مل، جفوني عن شواردها
ويسمير الخلائق جراها ويختصم

وأزرى المتنبي بمسيرة النقد القاعدي ومحاولة إخضاعه للمقاييس الثابتة والتقنين كالبلاغة. ولو نجح النقاد في تعقيد النقد لانكسر وتقلص، فما الأسس التي يمكن ان تستقر للابداع والخلق ، وليس للعبقيات قمم وأبعاد محدودة او محطات اخيرة لا تجاوز بعدها؟

وحار النقاد المؤيدون والمناوئون بأية قاعدة يمكن ان يبرهنوا على شاعرية اي الطيب الفذة ، او ينكروا له اي فضل ، فتختبطوا في مدح وقدح وتطرفوا في هذا وذاك ، حتى ان خصوماً غيروا من اشعاره وكلماته لينعوا عليه اخطاء متوجهة.

وأسهم المتنبي في اتساع مجالات النقد وظهور قضايا جديدة فيه ، وبرز منحى رائع يُعني بالأساليب ، ولا سيما فيما تفرد به المتنبي من موقف يازاء اللغة ، وما أتى به من جملة شعرية أدت الى شهرة وصيت وسطوة ، فظهرت دراسات الحرجاني وابن الأثير وغيرها في النقد اللغوي وفي مباحث الاسلوب نتيجة شارك المتنبي بسقوط فيها ، وكانت تلك الدراسات وغيرها خلاصة للنقد الأدبي في عصوره السابقة وبعد أن شاعت البحوث التي جعلت الاعجاز محورها .

وتثبت مع المتنبي قضية اخرى ، قبل ظهور سانت بيف بعثات السنتين ، فالنقد الأدبي كان يعني ، في كثير من الاحيان ، بالشعر وحده دون الشاعر ، وأصبح لدى المتنبي مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بالشاعر وأفكاره ونفسيته وأحداث زمانه ، ودارت رحى النقد عن الشعر متزجاً بصاحبها ، منطلقاً من تجاربه ، مقترباً بعصره ، متأثراً بعوامل سياسية واجتماعية وبيئية وغيرها .

ووحدة الموضوع في القصيدة من قضايا النقد التي أنهاها المتنبي ، فالتراث الشعري قبل الاسلام كانت تميل الى ان القصيدة ينبغي ان تكون متعددة الموضوعات ، ولكن هذا لا يمنع ان تأتي قصائد بموضوع واحد ، الا ان نقاداً ، ومنهم ابن سلام ، فضلوا الشاعر الذي تختلف موضوعاته

الشعرية، والقصيدة التي تضم أكثر من موضوع، فجاء المتنبي وأثبت أن الابداع الشعري، سواء انطوت القصيدة على موضوع واحد او موضوعات شتى، له من صاحبه ما يجمع شتاته كالألوان المتباينة في اللوحة التي تتدخل لتصبح اجزاء من وحدة تلك اللوحة وعلوها الخاص وجوها المماسك.

أليس للمنتبي، اذاً، دور كبير في النقد الأدبي، ما زال يتطلع الى اضاءة ودراسات.

المتنبي وحاسدوه

لم يثر شاعر حساداً ومناوئين ونقاداً ومعجبين، في عصره وما بعد عصره، كما فعل ابو الطيب المتنبي، مالئ الدنيا وشاغل الناس، فخلف ثروة أدبية تزداد مع الأيام، وتضاربأ في الآراء وتناقضأ في الأحكام، لم يشهد الأدب العربي مثيلاً لها في أطواره المختلفة، ولعل الخصومة التي رافقت المتنبي، والحسد احد اسبابها، من أكبر قضايا الشعر في العصر العباسي. ولا تنتهي مهمة الشاعر بالنظم، ولكن بدفع الآخرين الى تأثير انتاجه بالفقد، لحيوته وابداعه، في THEM في تطوير الاداء الشعري والنقدi. وكان المتنبي في هذا وذاك ظاهرة ودليلاً وشاهد عصر. ووراء عالم المتنبي الادبي بواعث كثيرة، في طليعتها اصالته وموهبتة، ومزجه بين القديم والحديث، وتميزه من اقرانه الشعراء، باسلوب ومعانٍ واتجاه ونوازع، فأخل ذكرهم وأوقع فيهم الحسد والغيرة والماراة واللوعة.

وللمتنبي قدرة على الاثارة نادرة فيما ينظم من شعر وما يفصح من آراء وما يصدر من مواقف، وفي حياته المليئة بالحركة والعنفوان والانتقال والترحال وفي افكاره ذات التوثيق الحاسم السريع، وفي طموحه وآماله الكبيرة وشغفه العجيب بمجده لم تدركه طقوس ملوك مصر. ولو جاز لنا ان نقرنه بالمعري امتداداً مكملاً ومتماً نهض بالقرن الرابع الهجري الى المكانة الادبية التي يتبوأها بين العصور، لعرفنا أية موهبة تمنع بها شاعرنا،

يصعب تعين أبعادها ، ويسهل الالعاء الى قضايا كثيرة حدت من آفاقها ، وضاءلت من قدراتها ، وضلت من انجازاتها ، كالمدائح وما شغلت من حياة الشاعر ووجданه وهدرت من طاقاته ، وما تضمنته من صفات ثابتة للمدوحين منها اجاد الشاعر في سردها ، تظل ذات قوالب محدودة ، تفتقر الى التشابك والصراع والعمق والصبرورة والتتطور^(١) ، والحساد الذين كان لهم تأثير عظيم في حياته وفي شعره وعلاقاته مع المدوحين . فهل نستطيع ان نبرر اهتمام شاعرنا بأولئك الحсад؟ وان نحيط بدى تأثيرهم فيه وقدرتهم على توجيه موهبته وردود افعاله وهمومه وتطلعاته؟

رافق الحсад المتنبي منذ صباه ومطالع حياته الشعرية الاولى^(٢)، يصاحبونه في كل مكان ولا يفارقونه ابداً حل ، وشكلوا عصبة قوية متassكة في حلب ايام سيف الدولة ، الرجل المرموق بين حكام عصره: « وكان - رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل الجنة مأواه - غزة الزمان ، وعماد الاسلام ، ومن به سداد التغور ، وسداد الامور »^(٣) ، فخليفة بغداد اخسرت عنه أبهة أسلافه ، وانتهب الدولة العباسية حكام وملوك ، عرب وعجم ، شغلتهم خصومات وغزوات ومطامع وصبوتات ، وحلات الروم تترى على الحدود ، فيتصدى لها سيف الدولة بشجاعة وقدرة حرية عالية^(٤) .

وما عادت للشعر تلك السطوة العباسية المعروفة ، ولكن اللقاء بين الشاعر والامير ارجع له الاشارة السابقة ومثل علامة مضيئة في القرن الرابع الهجري ، بحدود تقاليده الشعرية المعهودة ، نمت وتطورت ثم انتهت ، أضرّ بها الحсад ، وكان لها ان تستمر فتقدم أمثلة شعرية أكثر مما صنع المتنبي في مدائحه وسفياته ووصفه للمعارك والغزوات ، ولو لم يكن المتنبي شاعراً أصيلاً مبدعاً متميزاً ، ولو لم يكن سيف الدولة: « ... مقصد الوفود ، ومطلع الجود ، وقبلة الامال ، ومحظ الرجال ، وموسم الادباء ، وخليبة الشعراء ... »^(٥) ، لما نشأت لديه طبقة من حсад الشاعر واعدائه

انهت ذلك اللقاء بفرق مأساوي، وبددت قدرات المتنبي عند كافور وغيره، بالرغم من أن سيف الدولة: «كان اديباً شاعراً محا لجيد الشعر، شديد الاهتزاز لما يمدح به...»^(٦)، وخلف ذلك الفراق حسراً دائمة ولوحة متقدة، و الواقع بالشاعر وفت في عضده، واصناعه واتعبه، وعمل على تلاؤم الظروف التي ادت الى مقتله، وهو يدرج في مطلع العقد السادس من عمره. وكانت فاجعة كبيرة مني بها الشعر واصحابه.

حظي ابو الطيب عند سيف الدولة بمكانة سامقة لم يبلغها شاعر عند مدوح من قبل «ولم يجتمع قط بباب احد الملوك - بعد الخلفاء - ما اجتمع بباب سيف الدولة من شيوخ الشعر ونجوم الدهر»^(٧) ولكن المتنبي اشترط على مدوحه الا ينشده واقفاً والا يقبل الارض بين يديه^(٨)، لاعتراضه بنفسه ومعرفته بقدراته ، وتعاليه وكبريائه ، فرضي سيف الدولة ولم يتم بتقاليد المديح السائدة وأورث الحساد غماً فاتهموا المتنبي بالجنون^(٩)، وكان ابو محمد يحصل على ثلاثة الاف دينار سنوياً ، وعلى اعطيات وجوائز في مناسبات خاصة: «وأخبرني بعض المؤلدين ببغداد ، وحاله ابو الفتح يتوزر لسيف الدولة: ان سيف الدولة رسم له التوقيع الى ديوان البر بأخرج المال فيها وصل به المتنبي ، فخرجت بخمسة وثلاثين ألف دينار في مدة أربع سنوات»^(١٠) ، فليس عجياً أن يقتل الحسد الشعراً ، وأن يقفوا في طليعة مناوئيه ومبغضيه لانه استلب منهم الشهرة والمجد والعطاء «فخافوه على ارزاقهم»^(١١) ، وكان الى هذا وذاك رفيقاً ومصاحباً لسيف الدولة في حله وترحاله ، وحروبه وغزواته ، يخاطبه خطاب الصديق والحبـب ، وهم ينتظرون على الابواب حتى يؤذن لهم بالدخول وتقبيل الارض والانشاد ، وقد يمنعون ويحجبون ، فكثر حاسدوه وتألبوا عليه واجتمعوا على الانتقاد منه: «ولم يستطعوا أن ينظروا في غير حقد الى ما كان يتمتع به المتنبي من حظوة عند سيف الدولة ومن اعتزاز عند المعجبين به ، وكان في أخلاق اي الطيب ، بنوع خاص ، ما لم يستطعوا

قبوله . وقد زاده كبراً ما لاقى من نجاح . ومنذ وصوله عند سيف الدولة ، حتى قبل أن يكون اتباعه حلقة أدبية ، اجتمع خصومه في عصبة تكونت من كانت تصرفات الشاعر تشيرهم ومن كانوا يخشونه على ما لهم من امتيازات «^(١٢) ، و « قيل : ان الحالدين ، ابا بكر وأخاه عثمان ، قالا لسيف الدولة : انك لتغالي في شعر المتنبي ، اقترح علينا ما شئت من قصائدك حتى نعمل أجود منها ، فدافعها زماناً ، ثم كررا عليه ، فأعطاهما القصيدة التي مطلعها » :

لعينيكِ ما يلقى الفؤاد وما لقى
وللحرب ما لم يبقَ مني وما بقي
فلياً أخذها ، قال عثمان لأخيه ابي بكر : ما هذه من قصائدك الطنانات ،
فلاي شيء اعطانها ؟ ثم فكرا ، فقال أحدهما لصاحبه ، والله ما أراد الا
هذا البيت :

اذا شاء ان يلهو بلحية أحمق
أراه غباري ثم قال له الحق

فتركت القصيدة ولم يعاوداه ولم يعملا شيئاً «^(١٣) ، ولم يقصد سيف الدولة ذلك البيت وحده وإنما البيت الذي يليه أيضاً «^(١٤) :

وما كمدُ الحساد شيئاً قصدته
ولكنه من يزحّم البحر يغرق

وأعرض سيف الدولة عن ابي العباس النامي : « وكان عنده تلو المتنبي في المنزلة والرتبة » «^(١٥) ، فعاتبه فلام يحر جواباً فألح ، فقال : انك لا تحسن ان تأتي بمثل قوله :

يعودُ من كل فتحٍ غير مفتخرٍ
وقد أغدَى اليه غير محفلٍ

فغض ابو العباس النامي ولم يمدحه بعدها^(١٦) ، وكتب رسالة يتعقب فيها أخطاء المتنبي ، اشار اليها ابن وكيع في (النصف)^(١٧) ، ولم يجد فيها غير سب المتنبي من غير ايضاح العيب في قوله^(١٨) ، وكان النامي قد وجه خطابه الى المتنبي : « وain ذهبت وفي اي ضلاله همت ومن اي قليب جهالة اغترفت ؟ هذا النوع الذي اكثرت العجب به هو الذي اكثر التعجب منك »^(١٩) ، ولكن حسد اي العباس لم يمنعه من الاعجاب ببعض أبيات المتنبي ، قال : كنت اشتتهي ان اكون سبقته الى معنien ما سبق اليها ، أما احدهما فقوله^(٢٠) :

رماني الدهرُ بالارزاءِ حتى
فؤادي في غشاءِ من نبالِ
فصرتُ اذا أصبتني سهامُ
تكسرتِ النصالُ على النصالِ

والآخر :

في جحفلٍ ستر العيون غباره
فكأنما يصرن بالآذانِ

وقيل : ان السري الرفاء ، أحد شعراء سيف الدولة ، سمع بيت المتنبي :
وَخَسِرَ ثَبَتَ الْأَبْصَارُ فِيهِ
كَأَنْ عَلَيْهِ مِنْ حَدَقٍ نَطَاقًا

فقال : « هذا والله معنى ما قدر عليه المتقدمون ... وحم في الحال حسدا وتحامل الى منزله ومات بعد ثلاثة ايام »^(٢١) وينفي البديعي هذه الرواية ، بعد ان اوردها ، لان السري استعمل هذا المعنى بقوله^(٢٢) :

أحاطت عيونُ العاشقين بخصره
فهن لـه دون النطاق نطاقُ

ومقتل السري ببيت شعر للمنبي، ان صح ولم يكن تلقيقاً، ذو دلالة كبيرة على مدى ما يدركه الكتاب من غيرة الشعراء وحسدهم لأبي الطيب الذي تحداهم وأهانهم في أول قصيدة القها بين يدي سيف الدولة^(٢٣):

غضبتُ لِهِ مَا رأيْتُ صفاتَهِ
بِلَا وَاصْفِي وَالشِّعْرُ تَهْذِي طَاهِطُّهُ

وكثر الحساد واحكموا الطوق حتى ان أبا فراس قال لسيف الدولة: «ان هذا المتمشدق كثير الادلال عليك ، وانت تعطيه كل سنة ثلاثة آلاف دينار عن ثلاث قصائد ، ويمكن ان تفرق مائتي دينار على عشرين شاعرا يأتون بما هو خير من شعره ، فتأثر سيف الدولة من هذا الكلام وعمل فيه»^(٢٤) ، ولا يخفى ان شاعرا كأبي فراس يدرك مدى قدرة المنبي الشعرية وموهنته العالمية وتميزه من أقرانه الشعراء . ولم يغتفر ابو العشائر للمنبي عدم اهتمامه به بعد ان أسدى اليه فضلا كبيرا وأهداه الى سيف الدولة^(٢٥) ، فترفع بعد ذلك عن مدحه ، وكان قد نظم له قصائد ومدائح كثيرة^(٢٦) .

وما اقلق المنبي وأسهم في اتخاذة مواقف حاسمة ، منها فراق سيف الدولة وتوجهه الى كافور ، اقبال الامير عليه ، باديء الامر ، بقوه وشغف واعجاب ، ثم الاستئاع الى الوشاة والحساد والتاثير باقوالهم ، فيما بعد ، والإعراض عن الشاعر : «قال ابو الفتح بن جني: كنت قرأت ديوان المنبي عليه فلما وصلت الى قوله: أغالب فيك الشوق والشوق أغلب - القصيدة ، قلت له ، يعز علي ان يكون هذا الشعر في مدوح غير سقف الدولة ، فقال: حذرناه وانذرناه... ألسن القائل فيه:

أخًا الجود أَعْطِ النَّاسَ مَا أَنْتَ مَالِكٌ
وَلَا تَعْطِينَ النَّاسَ مَا أَنَا قَائِلٌ

فهو الذي اعطاني لكافور بسوء تدبيره وقلة تميزه»^(٢٧) ، ف موقف سيف

الدولة المتأرجح بين الشاعر وحساده، خلف نوعاً من المعاناة، كانت وطأتها ثقيلة على كبرياء المتنبي ووجданه، لانه احب سيف الدولة واطئان اليه ولم ينجلي من مدحه وتطلع الى تحقيق الامجاد في عزواته وحروبه. ولكن الامير غافل وأبا محسد وحيد، عدته موهبته الشعرية، وبمغضضوه كثيرون، ووسائلهم متنوعة، منها الاكاذيب والماكائد، لا يهدأ لهم بال حتى ينهوا ما بين الشاعر وصاحبها. وبدأ صراع مرير خفي بين المتنبي والحساد: اما ان ينتصر او يندحر ، والمحكم هنا سيف الدولة، وعليه وحدة تتوقف نتائج الصراع والحلبة في حلب، وله ان يقرر الى أي الجانبين يميل، هل يهدر الموهبة الشعرية العالية بأقوال الحاسدين؟ وain تصير رعايته للشعر وحبه للخلود فيه؟ وشمر المتنبي عن ساعديه، ولم يمل سوى الشعر يدفع به الحсад ويدير الصراع، فليتخذ درعاً واقية، ولينبه سيف الدولة الى الامر الجلل، فهو الخصم والحكم، وهو المجد والخيبة^(٢٨) :

ازل حسد الحساد عن بكتبه
فأنانت الذي صيرتهم لي حسدا

فسيف الدولة خلق طبقة من الحساد أزعجو الشاعر بأراجيفهم واقواهم ويتحتم عليه ان يزيلهم من الطريق، وان يهيء له اجواء الابداع، فان خذله اوقع به بعد ان: « جذب بضبعه ورفع من قدره »^(٢٩) ، واتاح للحساد ان يشتموا ، والشاعر يبحث عن عذر^(٣٠) :

وللحساد عذرًّا ان يشحوا
على نظري اليه وان يذوبوا
فاني قد وصلت الى مكان
اليه تحسد الحدق القلوبُ
وحين وصل الى ذلك المكان لم يبال ان يسخط الناس جميعاً ليرضي
مدوحه^(٣١) :

وَبِهِجَتِي يَاعَازِلِي الْمَلِكُ الَّذِي
أَسْخَطْتُ كُلَّ النَّاسِ فِي أَرْضَائِهِ

فليس له سوى ان يحثه على الالتزام بموافقه الاولى وعدم الاستئناف الى الوشاة^(٢٢) :

رويدك ايها الملك الجليل
 تأيي وعده ما تنيبل
 وجودك بالمقام ولو قليلا
 فما فيها تجود به قليل
 لأكبث حاسدا وأري عدوا
 كأنهما وداعك والريحيل

فان آزره الامير، في حلبة صراعه مع الحсад، قضى عليهم بسيف
يقطع اهام في غمده^(٢٢) :

اذاً شد زندي حسنُ رأيك في يدي
 ضربتُ بنصلٍ يقطع الهمَّ مغمداً
 وما أنت الا سمهريٌّ حلتَهُ
 فزين معروضاً وراغَ مسدداً

ويريد من سيف الدولة ان يفرق بين الكريم واللئيم وان يحسن مواطن الرفض والقبول والقرة والضعف^(٣٤) :

اذا انت اكرمت الكرم ملكته
وان انت اكرمت اللئيم غردا
ووضع الندى في موضع السيف بالعلا
مضراً كوضع السيف في موضع الندى

فسيف الدولة نفسه لم ينج من الحсад والبغضين والحاقدين^(٢٥) :

فدتلك نفوسُ الحاسدين فانها
معذبَةٌ في حضرةِ مغيّبٍ
وفي تعبٍ من يحْدُثُ الشمسَ نورَها
ويجهّدُ ان يأتي لها بضربيـبـ
وكان قد ضرب الامير خيمة، وأشاع الحسد ان مقامه يتصل بها ،
فهبت ريح شديدة فوقيت الخيمة، فتكلم الناس في ذلك ، فنظم المتنبي
قصيدة ، منها^(٢٦) :

فما العـاـسـدـونـ وـمـاـ أـمـلـواـ
وـمـاـ الحـاسـدـونـ وـمـاـ قـوـلـواـ
هـمـ يـطـلـبـونـ فـمـنـ اـدـرـكـواـ
وـهـمـ يـكـذـبـونـ فـمـنـ يـقـبـلـ
والامثلة كثيرة . ولكن هذه التعاويد الشعرية لم تجدي نفعاً ولم تتحقق أملأ !
وبقي موقف سيف الدولة يميل تارة مع الشاعر واخرى مع الحسد وبدأت
الأرض التي يقف عليها المتنبي في حلب تميد ، ولم يكن من يقبل الذل او
يخلّي مكانته في القمة للآخرين ، ولا من يقر بانتصارهم عليه ، فترك المتنبيه
والحدث والاشارات البعيدة وجلأ الى العتاب ، وكان عتابه في البداية رقيقة
حيباً أشبه بالهمس بين رفيقين او المناجاة بين حبيبين^(٢٧) :

أرى ذـلـكـ الـقـرـبـ صـارـ اـزـورـارـاـ
وـصـارـ طـوـيـلـ السـلامـ اـخـتـصـارـاـ
تـرـكـتـنـيـ الـيـوـمـ فـيـ خـجـلـةـ
أـمـوـتـ مـرـارـاـ وـأـحـيـاـ مـرـارـاـ
اسـارـةـكـ الـلـحـظـ مـسـتـحـيـيـاـ
وـأـزـجـرـ فيـ الـخـيـلـ مـهـرـيـ سـارـاـ

وأعلم أني اذا مَا اعتذرتُ
 إليك أراد اعتذاري اعتذارا
 فلا تلزمّني ذنوبَ الزمان
 إلى أسماءٍ وايامي ضمّارا
 وعندي لك الشردُ السائرا
 ت لا يختصّ من من الأرض دارا
 قوافي اذا سرنا من مقولي
 وثبن الجبالَ وخضّن البحارا
 ولِي فيك ما لم يقلْ قائلٌ
 وما لم يسر قمرَ حيث سارا
 فلو خلق الناسُ من دهرهم
 لكانوا الظلامَ وكنت النهار

ويسفر ابو الطيب، حين لا ينفع العتاب، عن شعوره الحقيقى ورفضه
 للواقع المهىن، ولموقف سيف الدولة المضطرب، ويطرق بصوت جديد لا
 يعرف المهادنة والمراؤغة، ويعلّى من شأن كبرائه، ويحمل العنف الشعري
 مكان اللوم والعتاب، لعل فيه خلاصاً، ويطلع على سيف الدولة بقصيدة
 الخالدة التي تفصح عن سمات الشاعر ودواخله التفسية اكثراً من اية قصيدة
 اخرى. وكانت رد فعل شعري قوى للحساد والمناوئين ومواقف سيف
 الدولة منهم ^(٣٨) :

واحدٌ قلبـاه من قلبـه شـمُّ
 ومن بجـسي وحالـي عنـده سـقـمُ

ولم تجد هذه القصيدة شيئاً ^(٣٩) ، بالرغم من حمّها الثائرة وتقرير سيف
 الدولة الواضح والتعریض به، وما عاد امام الشاعر سوى الرحيل، فقد
 وصل به الامر ان يهينه ابن خالويه بالضرب، إثر مناقشة لغوية، فلا

ينتصر له سيف الدولة. قال المتنبي لابن خالويه، بعد ان أخرج من كمه مفتاحاً ليضر به : « ... اسكت ويحك ، فانك أعجمي واصلك خوزي ، فما لك وللعربيه؟ فضرب المتنبي بذلك المفتاح فأسال دمه على وجهه وثيابه ، فغضب المتنبي اذ لم ينتصر له سيف الدولة لا قولأ ولا فعلأ ، فكان ذلك احد اسباب فراقه»^(٤٠) ، ويرى محمود محمد شاكر ان هذا الفراق حصل لاسباب اقتضاهما حب اي الطيب لخولة اخت سيف الدولة^(٤١) ، وينحي بعض الكتاب باللائمة على الشاعر ، وكأن لم يكن للحساد ذنب : « ... تعتب وتظلم وكان هو الظالم لنفسه ،.... في طبعه استدعاء عداوات الناس لانه كان عريضاً كثير التعرض والتصریح لندماء سيف الدولة ، شديد الزهو والافتخار عليهم ،... وكانوا عصبة ، وآل الامر الى ان غلبوه وازعجوه عن حضرة سيف الدولة وأخرجوه من نعمته»^(٤٢) . ويشد المتنبي الرحال الى مصر ، ويظل وفيأً لسيف الدولة ، ويلاحقه حсад حلب وهو في مصر ، ويشيرون انه توفي وينعونه في مجلس الامير^(٤٣) :

يامن نعيتُ على بعدي بجلسه
كلّ بما زعمَ الناعون مرتين
كم قد قلتُ وكم قد متُ عندكم
ثم انتفضتْ فزال القبرُ والكفن
قد كان شاهد دفني قبل قوبلم
جاعلةً ثم ماتوا قبل من دفوا
وأشار ، في قصائد يمدح بها كافوراً ، الى سيف الدولة اشارات كثيرة تفصح عن حبه ووفائه الدائم له ، ولكن ما الذي يفعل الشاعر وقد استمع بمدوحه الى قول عداته ، وتلبسه الشك من كل جانب^(٤٤) :
فلو كان مالي من حبيبٍ مقنعٍ
عذرٌ ولكن من حبيبٍ معهم

رمى واتقى رمي ومن دون ما اتقى
 هوى كاسرٌ كفي وقوسي وأسهمي
 اذا ساء فعلُ المرء ساءت ظنونه
 وصدقَ ما يعتاده من توهّم
 عادى محبيه بقول عُذاته
 وأصبح في ليل من الشك مظلم
 ويخاطب قلبه ويطلب منه الوفاء لمن نأى وغدر ولم يرزق جوده خلاصاً
 من الاذى^(٤٥) :

حبيتك قلبي قبل حبك من نأى
 وقد كان غداراً فكن لي وافيا
 اذا الجود لم يرزق خلاصا من الاذى
 فلا الحمد مكسوبا ولا المآل بآقيا
 ويأتيه في العراق نعي أخت سيف الدولة فيكتب اليه قصيدة، يخاطبه
 فيها^(٤٦) :

أرى العراق طويلاً الليل مذ نعيت
 فكيف لي ليل فتي الفتىان في حلب
 يظن ان فؤادي غير ملتهب
 وان دمع جفوني غير منسك
 بل وحرمة من كانت مراعية
 لحرمة المجد والقصد والادب
 يا احسن الصبر زر أولى القلوب بها
 وقل لصاحبها يا انفع السحب
 وأكرم الناس لامشتها أحداً
 من الكرام سوى آبائك النجب

ويدرك سيف الدولة ما فعل، ويندم ويأسى، ويود لو يعود الشاعر، ويكتب له، وبهم المتنبي بالرجوع، ولكنه يخاف الوشاة والحساد ان يعاودوه ويخشى النمية والكذب، فيمتنع. وهكذا استطاع الحсад ان يبعده عن سيف الدولة وان يمنعوا عودته اليه، وان يكونوا سداً منيعاً بينهما، وظل اللقاء امراً لا يتحقق، وخلف في قلبهما جرحاً لا يندمل^(٤٧):

فهمتُ الكتابَ أَبْرَ الكتبِ
فسمعاً لِأَمْرِ أميرِ الْعَرَبِ
وطوعاً لِهِ وابتهاجاً بِهِ
وانْ قَصَّرَ الفعلَ عَمَّا وجَبَ
ومَا عَاقَنِي غَيْرُ خَوْفِ الْوَشَاةِ
وانْ الْوَشَايَا تَطْرَقُ الْكَذَبِ
وتكثير قَوْمٍ وتقليله مم
وتقربيهم بيننا والخسب
وقد كَانَ ينصرهُمْ سمعه
وينصرني قلبي و الحسب
ومَا لاقَنِي بِلَدٍ بَعْدَكُمْ
ولا اعتضتَ من ربِّ نعماي رب
واني لاتبْلُغُ تذكـاره
صلـاة الـالـهـ وـسـقـيـ السـحـبـ

وتحقق ما اراد الحсад، ولم يستطع فارس العصر وشاعره، ان يصدما امام المكيدة والحق، او ان يتلقيا بعد فراق، ونأى المتنبي عن سيف الدولة، وانفرط ما انعقد بينهما، وكان يحث كافورا على ان يثار له من اولئك الحсад وان يوليه مقاطعة تخزنهم وتغطيتهم فيتصر عليهم الشاعر، ويسعد بعد شقاء، ويرفل في اثواب المجد^(٤٨):

ابا المسك ارجو منك نصراً على العدا
 وأمل عزاً يخضب البيض بالدم
 ويوماً يغيط الحاسدين وحاله
 أقيم الشقا فيها مقام التنعم

ويبدأ طور مأساوي جديد بين الشاعر ومدح آخر، ولم يكن كافور
 يجهل ان طموح المتنبي لا حدود له، فلم يكن مما أراد، خوفاً على ملكه
 اولاً، ثم ان شاعراً من قبل لم يطلب ان يشارك المدح الحكم ليغطي
 حсадه وبينال منهم، ولو لا اولئك الحساد لما غادر المتنبي حلب، ولما مدح
 كافوراً، ولما أورث ذلك المدح ندماً، ولما انعكس ذلك الندم هجاءً^(٤٩)،
 وبعد رحلة الثار من الحсад الخائبة في مصر، يهرب الشاعر فيتعقبه جند
 كافور، وينجو ويدفع قصيده الشهيرة في هجائه، ومنها^(٥٠):

اذا أردت كميت اللون صافية
 وجدتها وحبب النفس مفقود
 ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها
 أني بما أنا بساك منه محسود

ويدذكر في المقصورة^(٥١)، خروجه من مصر والنون السريعة التي
 اجتازت به المهالك، وما لقى من احداث، ويفخر ويهجو كافوراً لانه لم
 يثار له من حсадه، أو يهيء له حكمأً ربما كان الشاعر يود به ان يلم من
 شتات أمة مزقتها دوليات وخصومات.

ويرافق الحسد ابا الطيب في كل مكان، قبل رحلته الى مصر وبعدها،
 وكان له مناؤون أقوىاء من بين رجال عصره الذين لم يتمدحهم او لم
 ترضهم اماديجه القليلة لهم، فادر كانوا انه يستهين بهم ولا يجد لهم يستحقون
 مدحه، وليس لهم من طريق الى الخلود غير الشعر، والمتنبي يضن عليهم به،
 فغضبوه وثاروا وهددوا وتوعدوا، وتجمعت عندهم طبقات اخرى من

الحساد واللوعة، وأغرقوا بأبي محسد شعراً وكتاباً وجدوا مجالاً رحباً للنيل منه، بقصائد ورسائل، ووسائل أخرى. فكان أن اقترب حسد هؤلاء باولئك وما تذكر كتب الأدب: أن ثلاثة من بنى حيدرة لعداوة بينهم وبين المتنبي قالوا لصاحب طرابلس، ابن كيغلغ، حين مر الشاعر بها: ما نحب أن يجاوزك ولم يدخلك، مع معرفتهم بترفعه عن مدحه، فراسله وسأله، فاحتاج بيمين إلى مدة، فسد عليه الطرق حتى تنتهي فيمدحه، واضطر الشاعر أن يهرب وأذاع قصيدة في هجائه^(٥٢).

واستطاع أحد حاسديه وهو الأعور ابن كروس، أن يفسد عليه مدوحة بدر بن عمار، حين سار إلى طبرية وتختلف عنه الشاعر فكتب إليه ابن كروس: «ان ابا الطيب انا تخلف عنك رغبة بنفسه عن المسير معك، ويبلغ ذلك ابا الطيب فثارت نفسه وعزم على الرحيل وخاف ان يسلمه بدر إلى اعدائه فيرصدوا له ويفتكوا به على غرة»^(٥٣)، وكان قد خاطبه بقوله^(٥٤):

عَدُوِي كُلُّ شَيْءٍ فِيْكَ حَتَّى
خَلَتِ الْأَمْمَ مُوْغَرَةَ الصَّدُورِ
فَلَوْ أَنِّي حُسْنَتْ عَلَى نَفِيسٍ
لَجَدَتْ بِهِ لِذِي الْجَدِ الْعَثُورِ
وَلَكِنِي حُسْنَتْ عَلَى حِيَايَيِ
وَمَا خَيْرُ الْحِيَاةِ بِلَا سَرُورٍ

واتخذ قوم المجاء وسيلة للايقاع به فكتبوا قصيدة في هجاء الحسين بن اسحاق التنوخي وخلوها ابا الطيب، فكتب إليه يعاتبه، فقال^(٥٥):

أَنْكَرْ يَا ابْنَ اسْحَاقَ إِخْائِي
وَتَحْسَبُ مَائَةَ غَيْرِيْ مِنْ انْئَيِ
وَهَبْنِي قَلْتَ هَذَا الصَّبَرُ لِيَلْ
أَعْمَى الْعَالَمُونَ عَنِ الضَّيَاءِ

تطيئُ الحاسديين وانت مرتة
جعلت فداءه وهم فدائِي

ومن اعداء المتنبي ابن خنزاية، وزير كافور : « فقد جر المتنبي على نفسه كثيراً من الصعاب بمصر ، بترفعه عن بطانة كافور ووزيره ابن الفرات المعروف بابن خنزاية»^(٥٦) ، الذي جمع كتبه وجهرة من الادباء وجهد لينفي عن المتنبي فضله في نظمه لهذا البيت :

أزورهم وسوارُ الليل يشفع لي
وانثني وبساطُ الصبح يغري بي

وابتكاره لمعناه دون اقتباس او سرقة او اتكاء على شاعر آخر ، وذهبت جهود ابن خنزاية ، ببطيء مقصورة المتنبي^(٥٧) ، الذي الف كتاباً في اسماء الرجال والانساب^(٥٨) وجماعته سدى^(٥٩) ، وكان ابن وكيع من انصار الوزير فألف رسالة سماها : (المنصف للسارق والمتسوق من المتنبي) ، قال عنها ابن رشيق : « ما ابعد كتاب المنصف من الأنصاف»^(٦٠) .

ومن حсад الي محسد ومبغضيه ابن العميد ، « وكان يخاف ان لا يمدحه»^(٦١) ، دخل عليه احد اصحابه : « قال : فوجده واجها وكانت قد ماتت اخته عن قريب فظننته واجداً لأجلها فقلت لا يحزن الله الوزير فيما الخبر ؟ قال : انه ليغطيني أمر هذا المتنبي واجتهادي في ان أخذ ذكره وقد ورد علي نيف وستون كتاباً في التعزية ، ما منها الا وقد صدر بقوله :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر
فرزعت فيه بآمالى الى الكذب
حتى اذا لم يدع لي صدقه أملأاً
شرقت بالدموع حتى كاد يشرق بي

فكيف السبيل الى إخاد ذكره؟ فقلت: القدر لا يغالب ، والرجل ذو حظ من اشاعة الذكر واشتهر الاسم ، فالاولى ان لا تشغل فكرك بهذا الامر^(٦٢) ، وقد مدحه المتنبي بالرغم من ذلك^(٦٣) ، ووصفه بأنه الاسكندر في ملکه وارسطو في علمه وبطليموس في حكمته^(٦٤) .

واحب الصاحب بن عباد ان يمدحه المتنبي : « فلم يقم له وزناً^(٦٥) ولم يقصده فجزع وسخط^(٦٦) ، « واتخذه الصاحب غرضاً يرشقه بسهام الواقعية ، ويتبع عليه سقطاته في شعره وهفواته ، وينعي عليه سيئاته »^(٦٧) فكتب رسالته : « الكشف عن مساويء المتنبي »^(٦٨) ، ولم تكن هذه المساويء تستحق بحثاً وعناءً ، فألف الجرجاني كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه :

« ... فأحسن وأبدع وأطال وأطاب وأصحاب شاكلة الصواب ... »^(٦٩) ، وما قاله الجرجاني : « وما زلت أرى أهل الأدب - منذ الحقنني الرغبة بجملتهم ، ووصلت العناية بي وبنهم - في أبي الطيب احمد بن الحسين المتنبي فترين: من مطلب في تقريره ، منقطع اليه بجملته... يتلقى مناقبه اذا ذكرت بالتعظيم ، ويشيع محسنه اذا حكيت بالتفخيم ... وعائب يروم ازالته عن رتبته ، فلم يسلم له فضله ، ويحاول حطه عن منزلة بوأه ايها أدبه فهو يجتهد في اخفاء فضائه ، واظهر معایبه ، وتبع سقطاته ، واداعه غفلاته ، وكلا الفريقين اما ظالم له او للأدب فيه ... »^(٧٠) ، ووجه الجرجاني خطابه الى الصاحب بن عباد : « وأقبل عليك ايها الرواذي المتعمق فأقول لك: خبرني عنمن تعظم من اوائل الشعراء ، ومن تفتح به طبقات المحدثين، هل خلص لك شعر احدهم من شائبة وصفا من كدر ومعاية؟ ... فأبو الطيب واحد من الجملة ، فكيف خص بالظلم من بينها ، ورجل من الجماعة فلم افرد بالحيف دونها؟ فان قلت: كثر زللها ، وقل احسانه ، واتسعت معایبه ، وضاقت محسنه ، قلنا: هذا ديوانه حاضرا وشعره موجوداً ممكنا ، هلم نستقرئه ونتصفحه ، ونقبله ونتحمّنه ، ثم لك بكل سيئة عشر حسناً ،

وبكل نقيصة عشر فضائل...»^(٧١) ولم يتورع الصاحب بن عباد، بالرغم من كشفه، ان يسرق بعض معاني المتن^(٧٢)، وان يغير كلمات في اشعاره ليعييها عليه^(٧٣).

ولعل الوزير المهلبي، الذي لم يمدحه الشاعر، من أخطر المناوئين والاعداء: «ولما قدم ابو الطيب من مصر بغداد، وترفع عن مدح المهلبي الوزير، ذهاباً بنفسه عن مدح غير الملوك، شق ذلك على المهلبي، فاغرى به شعراء بغداد حتى نالوا من عرضه، وتباروا في هجائه، ومنهم ابن الحجاج وابن سكرة الحاشمي، والحاشمي، واسمعوه ما يكره، وتماجنا به، وتنادروا عليه فلم يحبهم، ولم يفكر فيهم، وقيل له في ذلك، فقال: إني فرغت من اجابتهم بقولي لمن هم أرفع طبقة منهم في الشعراء.

أرى المشاعرين غُرُوا بذمي
وممن ذا يَحْمِدُ الداء العضالا
ومن يكُ ذا فم مرمي ضل
يجد ممراً بـه الماء الزلا

وقولي:

أفي كل يوم تحت ضبني شويعر
ضعيف يقاويني قصير يطأول
لساني بنطقي صامت عنه عادل
وقلبي بصمي صاحل منه هازل
وأتعب من ناداك من لا تجيئه
وأغrieve من عاداك من لا تشاكل
وما التيه طي فيه مُ غير أنني
بغيسض إلى الجاھل المتعاقل

وقولی:

و اذا اتتك مذمي من ناقصٍ
 فهي الشهادة لي بـأني كاملٌ^(٧٤)

وليت الشاعر التزم بتعاليه واحتقاره للحساد، ولم يهتم بهم ولم يتح لهم مجال اهدار طاقاته ومواهبه وأحاسيسه، بالادلال عليهم ومحاولة اغاظتهم وتوعدهم وتخديهم ورد مكائدتهم، وما أروع موقفه من ابن الحاجاج ورده البليغ عليه حين امسك بلجام دابته، بتحرير من المهلي، وانشده شعراً مقدعاً في ملأ من الناس، وحاول النيل منه، فصبر عليه حتى انتهى، وانصرف دون ان يفووه بكلمة^(٧٥).

وكان المهلي قد حرض الحاتمي على النيل منه: «سامني هتك حريري وغمزيق أديمه ووكلي بتتبع عواره وتصفح اشعاره وإحواجه الى مفارقة العراق»^(٧٦)، فحاوره الحاتمي وناظره وظن انه نال منه، ففرح المهلي وذهب الى معز الدولة يبشره بما حدث: «أعلمت ما كان من اي على الحاتمي والمتني ، فإنه شفى منه صدرا»^(٧٧)، «فموقف الحاتمي من المتني معروف ، كله تحيف وتحامل لانه صناعة من صنائع المهلي ومعز الدولة بن بويه»^(٧٨) ، وما اضيع هذين الرجلين اللذين يسعدان باهانة الشاعر والتعريف به ، «قال أبو علي الحاتمي : كان ابو الطيب عند وروده مدينة السلام ، قد التحف برداء الكبر والعظمة ، يخيل اليه ان العلم مقصور عليه ، وان الشعر لا يغترف عذبه غيره ... وتخيل ابو محمد المهلي انه لا يتمكن احد من مساجلته ومقارعته ، ولا يقوم لمجادلته ، والتعلق بشيء من مطاعنه ، وساء معز الدولة ان يرد على حضرته رجل صدر عن حضرة عدوه ، ولم يكن بملكته أحد يماثله فيها هو فيه ولا يساويه في منزلته يبدي لهم عواره ويكتفي آثاره ويهتك استاره... فتوخيت ان يجتمعنا مجلس اجري أنا واياه في مضماره ليعرف السابق من المسبوق ...»^(٧٩) ، واتهم المتني

بالسرقة ونفي عنه التوليد والابتكار : « ما أعرف لك احسانا في جميع ما ذكرت ، وإنما أنت سارق متبع ، وأخذ مقصرا ، وفيها تقدم من هذه المعاني مندوحة عن التشاغل بها »^(٨٠) ، والسرقة الادبية قضية معقدة متشعبة ، طال حديث الأقدمين عنها ، ولا شك في ان اتهام الحاتمي باطل ، فيه من التحامل والغلو ما يشين ، وقد ناقش كثير من الكتاب مسألة اتهام المتنبي بالسرقة واظهروا خطأ ما ذهب اليه الحاتمي وغيره^(٨١) ، « واحيا المتنبي كثيرا من موتي الشعرا ، فلولاه ما ذكروا ، ذكرهم نقاده اذ زعموا انه سرق هذا او ذاك المعنى منهم فعاشا »^(٨٢) ، وكان المهلي نفسه الذي دفع الحاتمي الى اثبات سرقات المتنبي ، قد سرق بعض معاني الشاعر^(٨٣) .

ورأى الحاتمي ان حكم المتنبي مستمدّة ومقتبسة من اقوال ارسطو^(٨٤) وقد أخطأ فيها ذهب اليه مرتين : الاولى حين فهم حكم الشاعر ابياتاً مفردة او انصاف ابيات مجردة من النص ومن ظروف نظمها واحاسيس صاحبها ، وakan ابو الطيب قد اتخذها ستاراً يضم كثيرا من معانٍ خفية بعيدة تومئ الى ما لا يستطيع الاصفاح عنه مباشرة ، وهدف من ورائها الى مقاصد ابعد غورا من حكمة ظاهرة ، وقد اثبتنا ان كثيرا من حكم المتنبي ليست حكماً ، وأن المتنبي ليس شاعرا حكماً طبقاً لما عرف عنه^(٨٥) . والثانية : ان حكم المتنبي ، لو نظمت لغرض حكمي فلسفياً محض ، بينها وبين اقوال ارسطو فروق وتفاوت وتبين ، ولم يدرك الحاتمي ان التجارب الانسانية تتشابه وقد يخرج مفكراً بنتيجة واحدة إثر تجربة مماثلة.

وحاول المهلي ان يحيط من نسب المتنبي أيضاً : « وظل الناس يلهجون مدى الف عام ان أباه كان يعرف بعدان او عيدان السقاء . ولكن هذه الدعوى لم يتردد صداها في التاريخ الا منذ عام ٣٥٢ هـ بعد وقعة شراء بغداد فيه باغراء الوزير المهيـي وذلك قبيل سفره الى فارس »^(٨٦) ، وقد نفي هذه المسألة كتاب قدماء كالعميدي الذي أشار في (الابانة) الى جلالـة

نسبة^(٨٧)، ومحدثون ومنهم: عمر فروخ ورضوان الشهال ومحمود شاكر^(٨٨)،
وعبد الغني الملاح^(٨٩).

ولعل لعبد الدولة، أحد رجالات عصره، يدا في مقتله، وبالرغم من
مدائح المتنبي له^(٩٠)، فقد وغر في صدره حقد على الشاعر وحسد لمدوحه
السابقين كسيف الدولة: «... وقيل: سبب قتله انه لما ورد على عضد
الدولة ومدحه وصله بثلاثة الاف دينار وثلاثة أفراس مسروقة محلاة، ثم
دس من يسأله: أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال: ان سيف
الدولة كان يعطي طبعاً وعضد الدولة تطبعاً، فغضب عضد الدولة، فلما
انصرف جهز اليه قوماً منبني ضبة فقتلوه...»^(٩١)، ويؤيد فيصل السامر
هذه الرواية^(٩٢)، وينفيها عزام^(٩٣)، ويرى محمود شاكر ان لكافور يداً
في مقتله^(٩٤).

ومن العوامل التي زادت من الخصومة وأثبتت عليه الحсад والاعداء
اعتزازه بعروبه و موقفه الصريح من الاعاجم، وبعض من ملوكوا حكموا
منهم^(٩٥):

وأنا الناسُ بِالملوکِ وَمَا
تُلْخُ عَرْبَ مُلُوكَهَا عَجْمُ
لَا اَدْبَعْ نَدَهْمُ وَلَا حَسْبَ
وَلَا عَهْوَدَ هَمُ وَلَا ذَمَّ

ولا يعدم المتنبي حساداً مجهولين، اكل الحقد قلوبهم، لالسبب ظاهر:
«... نقل بعض ائمة الادب ان رجلاً من مدينة السلام كان يكره ابا
الطيب المتنبي، فآل على نفسه الا يسكن مدينة يذكر بها ابو الطيب وينشد
كلامه، فهاجر من مدينة السلام، وكان كلما وصل بلداً يسمع بها ذكره
يرحل عنها حتى وصل الى اقصى بلاد الترك، فسأل اهلها عن ابي الطيب
فلم يعرفوه، فتوطنها فلما كان يوم الجمعة ذهب الى صلاتها بالجامع، فسمع

الخطيب ينشد بعد ذكر اسماء الله الحسنى:
أَسَامِيًّا لَمْ تَرْزُدْهُ مَعْرِفَةً
وَانْجَلَذَةً ذَكَرْنَا هَا

فاد الى دار السلام «٤٦».

وللمتنى، وما يتمتع به من صفات خاصة، أثر كبير في تأليب الحсад وتأجيج الخصومات، فهو متميز في شخصيته وافعاله، معتمد بنفسه، مدل بمواهبه، ذو كبراء وطموح لا يجد «٤٧».

اذا غامرت في شرف مروم
فلا تقنع بما دون النجموم

يملك طاقة هائلة، لم تأتلف وظروف حياته واحداث زمانه فظلت حبيسة تبحث عن منفذ، ولا تجده، وتمثل في تناقض يتخذ اشكالاً متنوعة من اقبال وادبار على امر بعينه، ومديح وهجاء لشخص بذاته، وحل وترحال، وحدة وانفعال، ورفة وانخفاض، وقبول هبات لا تتفق ونوازع الكبرياء في نفسه «٤٨»، فاختلط الواقع بالوهم، واضطرب القول والفعل، وضاع المجد والطموح، وتكونت لدى الشاعر هواجس مقلقة، منها صروف الدهر والزمن العاتي «٤٩»، ومنها الحسد وما صنعوا، ومنها الرغبة في الحكم والسلط، والروح الامرية الآسرة، ولم يكن ما قيل عن ادعائه النبوة «٥٠»، سوى منفذ صغير واحد، لم يدم طويلاً، وكان رأيه في ذاته يفوق ما للناس من آراء في ذواتهم، ويصل احياناً حد التأليه لنفسه، والتفوق على العالمين على نحو غريب غير مألف، فيه نرجسية وعصاب، والا كيف نبرر قوله في صباح «٥١»:

أَمْطِ عَنْكَ تَشْبِهَيِّ بِمَا وَكَانَهُ
فَإِنَّهُ فَوْقَنِي وَلَا أَحَدٌ مِثْلِي

او تدرك لماذا يحتقر الناس^(١٠٢) :

أي محل ارتقى اي عظيم اتقى
وكل ما قد خلق الله وما لم يخلق
محترر في همي كشعر في مفرقى
او يضعهم تحت اخصيه^(١٠٣) :

ضاق ذرعا بآن أضيق به ذر
عا زماني واستكرمتني الكرام
واقفا تحت إخصي قدر نفسي
واقفا تحت إخصي الأنعام
ولماذا يتخد منهم مطية الى احد مدوحه^(١٠٤) :

لو استطعت ركب الناس كلهم
الى سعيد بن عبدالله بعران
ولماذا يعد أشعار غيره ضربا من النهيق^(١٠٥) :

لم تزل تسمع المديح ولكن
صهيول الجواد غير النهاق
واية منزلة يريد ان يبلغه ايها الزمن دون ان يبلغها الزمن من نفسه^(١٠٦) :
أريست من زمني ذا أن يبلغني
ما ليس يبلغه من نفسه الزمن

ان نوازع المتبني المختلفة، وشخصيته المتميزة المتسلطة اسهمت بقدر
كبير في خلق طبقة من الحсад ، يندر فيها من يتخذ من موهبة الشاعر او
تكوين الفنان عذرا لظواهر غريبة بدت منه ، وليس عجيبا أيضا ان يكون
حول المتبني مبغضون كثيرون ، فقدرته على خلق الاعداء هائلة ، وتعاليه
الشامخ يقلق من يريد ان ينفرد او يتميز بشيء امامه ، وهذا ما حدا بسيف

الدولة ان يعرض ويسيء ويسمع الى الوشاة، وكان من الطبيعي جدا الا يأبه الشاعر للحاسدين ، ولا نستطيع ان نوفق بين كبرياته وتعاليه وصلفه واهتمامه المفرط الشديد بما يقولون ويفعلون، بعد ان وصفهم بالضعة والحمق والتفاهة ، وكنا نود لو استطاع المتنبي ان يجعل ما يرد في بعض ابياته الى واقع حقيقي ملموس^(١٠٧) :

لا تلق دهرَكَ الا غَيْرَ مُكْرَثٌ
ما دام يصْحَبُ فِيهِ رُوحَكَ الْبَدْنُ

فيصبح ويستهين^(١٠٨) :

أَبْدُو فِي سُجْدَةِ مِنْ بَالِسْوَةِ يَذْكُرُنِي
فَلَا أَعْتَابُهُ صَفْحًا وَاهْوَانًا
وَهَكَذَا كُنْتُ فِي أَهْلِي وَفِي وَطْنِي
إِنَّ النَّفِيسَ غَرِيبَ حِيشًا كَانَ
مُحَشَّدُ الْفَضْلِ مَكْذُوبٌ عَلَى أَثْرِي
أَلْقَى الْكَمْيَ وَيَلْقَانِي إِذَا حَانَا

ولماذا لم يعنه رضي مدحه ، على ما يقول ، في احتقار الحسد^(١٠٩) :

غَضْبُ الْحَسَدِ إِذَا لَقِيتُكَ رَاضِيَا
رَزَءُ أَخْفَفَ عَلَيِّ مِنْ أَنْ يَوزَنَا

وكيف يكترث بمقلة عمياء^(١١٠) :

وَإِذَا خَفِيَتْ عَلَى الْغَيِّ فَعَذَّرَ
إِنْ لَا تَرَانِي مَقْلَةً عَمِيَّاً

أو يلتفت الى الاصداد^(١١١) :

وَأَرْحَمُ أَقْوَاماً مِنْ الْعَيِّ وَالْغَبَا
وَأَعْنَذُرُ فِي بَغْضِي لِأَنَّهُمْ ضَدٌ

أو يهم من لا يساون الخبر الذي يأكلون، فلا يبالي ولا يداجي ولا يتوانى في أمره ولا يضعف ولا يعجز ويقضي على مناوئيه بصلاحين فتاكين: السيف والشعر، ولكن الى أي مدى يتطابق القول والفعل؟ لانجد في الواقع سوى الاهتمام الشديد بالحساد وما لفقوا^(١١٢):

أن الكذاب الذي أكاد به
أهون عندي من الذي نقلة
فلا مبالٍ ولا مداعجٍ ولا
فان ولا عاجزٌ ولا تکـه
ودارعٍ سفتـه فخـر لـقـى
في الملتـقـى والعـجـاج والعـجلـه
وسامـع رـعـته بـقـافـيـة
يـحـارـ فـيـهـاـ المـنـقـحـ القـوـاـهـ
ورـبـماـ يـشـهـدـ الطـعـامـ معـيـ
مـنـ لاـ يـساـويـ الخـبـزـ الذـيـ أـكـلهـ
ويـظـهـرـ الجـهـلـ بـيـ وـأـعـرـفـهـ
وـالـدـرـ دـرـ بـرـغـمـ مـنـ جـهـهـ
ولـيـسـ لـكـلامـ النـاسـ فـيـاـ يـرـبـيـ
يـعـاديـ بـاـ يـوجـبـ الـحـبـ،ـ فـاـ الذـيـ نـفـسـ عـلـيـ الـحـسـادـ:ـ مـوـهـبـتـهـ الشـعـرـيةـ
الـعـالـيـةـ؟ـ اـعـتـادـهـ بـنـفـسـهـ وـقـدـرـاتـهـ؟ـ طـمـوـحـهـ وـتـطـلـعـهـ إـلـىـ الـمـجـدـ وـالـرـفـعـةـ؟ـ اـهـذاـ
مـاـ يـحـتـمـ الـبـغـضـاءـ،ـ وـيـنـفـيـ الـحـبـ وـالـثـنـاءـ؟ـ وـلـكـنـهـ الـحـسـدـ:ـ دـاءـ لـاـ يـقـوىـ عـلـىـ
شـفـائـهـ أـحـدـ^(١١٣):

وـمـاـ لـكـلامـ النـاسـ فـيـاـ يـرـبـيـ
أـصـوـلـ وـلـاـ لـقـائـلـيـهـ اـصـوـلـ
أـعـادـىـ عـلـىـ مـاـ يـوجـبـ الـحـبـ لـلـفـتـىـ
وـأـهـداـ وـالـفـكـسـارـ فـيـ تـجـولـ

سوى وجع الحساد داو فانه
 اذا حَلَّ في قلب فليس يحولُ
 ولا تطعن من حاسدٍ في مسودة
 وان كنت تُبَدِّيْها لـه وتنيلُ
 ولماذا لا يقتفي آثار احد مدوحـه في موقفـه ازاء الحـساد^(١١٤) :
 ويحتقر الحـساد عن ذكرـه لهم
 كأنـهم في الخـلق ما خـلقوا بـعدُ
 او موقفـه مـدوح اخـر حلـ حـسادـه انـ يـتوـا غـيـظـا فـيـحـسـداـوا منـ يـفـتـقـرـ الىـ
 خـلةـ الحـسـدـ، بـبلـوغـهـ الـكـمالـ فـليـسـ اـحـدـ فـوقـهـ يـحـسـدـهـ، فـأـرـاهـمـ ماـ بهـمـ منـ
 تـقصـيرـ عـنـهـ وـنـقـصـ دونـهـ^(١١٥) :
 قـطـعـهـمـ حـسـداـ أـرـاهـمـ ماـ بهـمـ
 فـقطـعـواـ حـسـداـ لـمـ لاـ يـحـسـدـ
 فيـعودـ يـسـتجـديـ الاـيـامـ انـ تـخـطـىـ فـتـقـرـبـ حـبـيـباـ وـتـبـعـدـ بـغـيـضاـ^(١١٦) :
 اـمـاـ تـغـلـطـ الاـيـامـ فـيـ بـأـنـ أـرـىـ
 بـغـيـضاـ تـنـائـيـ اوـ حـبـيـباـ تـقـرـبـ
 وـيـتـمنـيـ انـ يـخلـوـ شـعـرهـ منـ عـتابـ وـشـكـوىـ^(١١٧) :
 أـلـاـ لـيـتـ شـعـريـ هـلـ اـقـولـ قـصـيـدةـ
 فـلاـ اـشـتـكـيـ فـيـهـاـ وـلـاـ أـعـتـبـ
 وـكـيـفـ يـشـيرـهـ الحـسـادـ وـهـوـ عـقـوبـةـ لـهـ، وـقـدـ وـطـئـتـ اـقـادـمـهـ كـلـ هـاـمـةـ^(١١٨) :
 اـنـيـ وـانـ لـمـ لـتـ حـاسـدـيـ فـماـ
 اـنـكـرـ اـنـيـ عـقـوبـةـ لـهـ
 وـكـيـفـ لـاـ يـحـسـدـ اـمـرـؤـ عـالمـ
 لـهـ عـلـىـ كـلـ هـاـمـةـ قـدـمـ

فتُصبح الحياة مع أولئك الحساد أبغض من الموت، والليل أقصر من نهار مشوب بالخاظهم، فهم نوائب الحدثان، وليس له من مهرب سوى ان ينطلي الخطوب الى احد مدوحيه^(١١٩) :

وَمَا لَيْلٌ بِأَطْوَلَ مِنْ نَهَارٍ
يَظْلِمُ بِلِحْظٍ حَسَادِيٍّ مَشْوَبًا
وَمَا مَوْتٌ بِأَبْغَضٍ مِنْ حَيَاةً
أَرَى لَهُمْ مَعِيَّ فِيهَا نَصِيبًا
عَرَفْتُ نَوَائِبَ الْحَدَثَانِ حَتَّى
لَوْ اَنْتَسَبْتَ لِكُنْتَ لَهَا نَقِيبًا
وَلَا قَلْتَ الْابْلَلُ امْتَطِينًا
إِلَى ابْنِ ابْنِ ابْنِ سَلِيمَانِ الْخَطَّوبَةِ
وَيَبْلُغُ بِهِ خَوْفَهُ وَهَلْعَهُ مِنَ الْحَسَادِ إِلَّا يَبْوحُ بِشَكْوَاهِ إِلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ ثَلَاثًا
يَكُونُ وَاحِدًا مِنْهُمْ فَيَشْمَتُ بِهِ^(١٢٠) :

وَلَا تَشَكَّ إِلَى خَلْقٍ فَتَشْمِتْهُ
شَكْوَى الْجَرِحِ إِلَى الْغَرَبَانِ وَالرَّخْمِ
وَلَا عَجَبٌ فَقَدْ شَمْتُوا حَتَّى مَوْتِ جَدَتِهِ الَّتِي أَحْبَبَهَا كَثِيرًا^(١٢١) :
لَئِنْ لَدَّ يَوْمَ الشَّامِتِينَ بِمَوْتِهِ
فَقَدْ وَلَدْتُ مِنِي لَآنَافِهِمْ رَغْمًا
وَلَا يَغَدِرُ بِلَدًا إِلَى آخرَ إِلَّا وَهُوَ فِي خَطْرٍ مُحِيقٍ مِنْ هُؤُلَاءِ الْحَسَادِ الَّذِينَ لَا
يَخْلُو مِنْهُمْ مَكَانٌ^(١٢٢) :

لَا اقْتَرِي بِلَدًا إِلَّا عَلَى غَرَرٍ
وَلَا أَمْرُّ بِخَلْقٍ غَيْرَ مُضطَغَّنٍ
وَحْلَ هُؤُلَاءِ الْحَسَادِ أَبَا الطَّبِيبِ عَلَى أَنْ يَغْلُو فِي تَعَالِيهِ وَكَبْرِيَائِهِ وَصَلْفِهِ

وَطْمُوحَهُ وَانِيزَادَ عَنْهَا وَصَلَابَهُ رَدًا لِلْحَسَادِ وَعَلاجًا مَضادًا يَدْفَعُ الْمُحْنَةَ
وَيَخْفَفُ مِنَ الْآثارِ الدَّامِيَةِ (١٢٢).

وَلَا تَحْسِنَ الْمَجْدَ زَقَّاً وَقِينَةً
فَمَا الْمَجْدُ إِلَّا السِّيفُ وَالْفَتْكَةُ الْبَكْرُ
وَتَضْرِيبُ اعْنَاقِ الْمَلُوكِ وَانِتْرَى
لَكَ الْهَبَوَاتُ السُّودُ وَالْعَسْكَرُ الْمَجْرُ
وَتَرْكِكُ فِي الدُّنْيَا دَوِيًّا كَأَنَّا
تَدَاوِلُ سَمْعَ الْمَرْءِ أَنْلُكَهُ الْعَشَرُ

★ ★ ★

انِ اكْنَنْ مَعْجَبًا فَعَجَبٌ عَجِيبٌ
لَمْ يَجِدْ فَوْقَ نَفْسِهِ مِنْ مَزِيدٍ
أَنَا تَرْبَ النَّدَى وَرَبُّ الْقَوَافِي
وَسِامُ الْعِدَا وَغَيْظُ الْحَسَدِ وَ

★ ★ ★

وَفَوَادِي مِنَ الْمَلُوكِ وَانِ كَا
نْ لَسَانِي يَرَى مِنَ الشَّعْرَاءِ

★ ★ ★

يَقُولُونَ لِي مَا انتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي؟ مَا أَبْتَغِي جَلَّ اَنْ يُسَمَّى
كَأَنْ بَنِيهِمْ عَالَمُونَ بِأَنِّي
جَلُوبٌ إِلَيْهِمْ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيَةِ
وَالْأَمْثَلَةُ كَثِيرَةُ. وَالْحَسَادُ كَثِيرُونَ، وَعِوَالِ الْحَسَدِ وَبَوَاعِثِهِ لَا تَحْصَى:
وَتَأْثِيرُهُمْ فِي الْمُتَنَبِّي لَا يَجِدُ. وَلَا اَظُنَّ اَنْ شَاعِرًا فِي الْعَرَبِيَّةِ، وَرَبِّا فِي غَيْرِ
الْعَرَبِيَّةِ وَقَعَ تَأْثِيرُ الْحَسَدِ، وَكَانَ ضَحْجَةُ لَهُ، عَلَى نَحْوِ مَا كَانَ اَبُو الطَّبِّبِ،

فكان حاسديه في حياته ادوار غير مشرفة، وجهت تصرفاته واعماله، واربكت مزاجه ونوازعه، ودفعته الى الكبر والغرور، تعويضاً بائساً، والى ارادة التسلط والحكم، للκκιδ والتحدى، وأدت به الى المصير المأساوي المؤلم : القتل في الصحراء ، والبقاء في العراء ، اياماً حتى انت العقban على ما ابقى الحساد منه . لم يقتله الهجاء وحده !

وهرب ابنه محمد من الموت وعاد ليحمل كنز أبيه من كتب ودفاتر ققتل ايضاً . وكان الشاعر يود لو يكنى ، في حياته وبعد مماته ، بأبي محمد وأوصى بذلك ، ولم يرتضى الالقاب الاخرى ، فأي حزن يمكن ان تورث هذه الرغبة !؟ ولم تتحقق الايام ما أراد . وضاع دم محمد وابيه هدرا .

ولم تنته رحلة الحسد بموت الشاعر ، اخذت اتجاهات جديداً ، في كتابات بعض الباحثين ، من قدماء ومحديثين ، وما لفقوا ، بخيالهم المريض ، من أخبار وحكايات وآراء ودراسات (١٢٤) ، ولم تكفه في حياته جهود حсадه لتجريده من مواهبه ، والصاق تهمة السرقة به ، ووصمه بالضعف اللغوي ، والصناعة والافتعال ، سلبيه من فضل ابتكار المعاني الفلسفية في اشعاره وارجاعها الى ارسطو واقواله ، واستعداء رجالات العصر عليه ، وتحريض مدحوجه للغدر به ، والايغال طعناً في شرفه ونسبه واخلاقه . ولكن الشاعر بقي شامخاً مدللاً بتتفوقة ، عبر رحلة الحسد ، وان انهكته واتعبته ، وانكسر الحساد الى غيابه الماضي . فهل يجوز لنا ان ننجح بال الخيال فنتصور الشاعر بعيداً عن الحاسدين ، مبراً من الحاذدين ، يوجه ما يملك لتطوير قدراته وتطويعها ، لا يشغله هجاء ولا يهمه حسد فيطول بقاوه في هذه الأرض ، وتكثر قصائده ، ويزداد تراثه الشعري ، ويثيري الادب العربي بعطائه ؟ ولكنه مغضون تصور يعين على استيعاب أثر الحساد والحاقدین في حياة المبدعين .

ان حساسية الفنان توقعه في شباك الحاسدين ، ضحية سهلة ، حين تزعزعه كلمة ، او تقلقه التفاتة ، او يركبه وهم ، او يقض مضجعه

هاجس؟ وحين يتبع لهم ان يدركوا مكامن الضعف فيه. ونزعة التفوق عند الشاعر وتغizه وانفراده، وشمولية وعيه وادراته، وعمق تفكيره ونفاده، من مكونات روح شفافة رقيقة، سريعة العطب والتأثير، ردود افعالها اقوى واعنف بكثير ما تلاقيه من احداث، تنكمش وتنفتح، تفرح وتحزن، في وقت واحد، لأمر عابر او اشاره غير مقصودة، لا يلتفت اليها آلاف الناس، في آلاف أيامهم ولا يعودونها اهتماما، وتلك (شهادة الكمال) وضربية اخرى يدفعها المتفوقون والمبدعون.

ودفع شاعرنا ثمن التفوق والموهبة من ذوب وجданه واعصابه واحساسه، واحاداث زمانه وحياته ولم يحمل معه تعويذة تقيه الحسد. وكان على العصر ان يرعى هذا الشاعر المتميز، ولكنه ككل العصور، وابو الطيب ككل المبدعين.

ولا يخفى من وطأة هذا الحسد سوى احتقار أصحابه، فلا يحظون باهتمام، الا في بحوث تحاول ان تعرى عريهم بعد اكثر من ألف عام.

(١) ينظر للمؤلف: التكسب بالشعر، بيروت ١٩٧٠، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) ينظر: ديوان أبي الطيب المتنبي، بشرح أبي البقاء العكبري، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٤٢، ٣٢٣. وعليه نشير فيما نورد من نصوص شعرية.

(٣) التعالي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محی الدين عبد الحميد، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٧.

(٤) لتفصيلات وافية عن قيام الدولة الحمدانية، ومكانة سيف الدولة، ينظر: د. فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ج ٢، بغداد ١٩٧٣، وفيه فصل عن المتنبي في حلب، ص ٢٧٢ وما بعدها.

(٥) يتيمة الدهر ١ - ٢٧.

(٦) المصدر السابق ٢٨.

(٧) المصدر السابق ٢٧.

- (٨) يوسف البديعي، الصبح المنبي عن حبشية المنبي، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، القاهرة ١٩٦٣، ص ٧١. وينظر: رأي محمود محمد شاكر في هذا المقالة، المقطف، المجلد ٨٨، القاهرة ١٩٣٦، ص ١١٠.
- (٩) الصبح المنبي .٧١
- (١٠) البغدادي، خزانة الادب، ج ٢، القاهرة ١٣٣٧ هـ، ص ٣٠٨.
- (١١) شاكر .٦٦
- (١٢) عن بلاشير، ينظر: محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٦١.
- (١٣) الديوان ٢ - ٣١٤. وينظر: الصبح المنبي .٣١٤
- (١٤) الديوان ٢ - ٣١٤.
- (١٥) يتيمة الدهر ١ - ٤١ .٢
- (١٦) الصبح المنبي .٨١
- (١٧) - (١٩) ينظر: احسان عباس، تاريخ النقد الادبي عند العرب، بيروت ١٩٧١، ص ٢٧٠، ٢٧١، ومصادره.
- (٢٠) الصبح المنبي .٨١
- (٢١) المصدر السابق .٨٠. وينظر: فيصل السامر .٢٩٣
- (٢٢) الصبح المنبي .٨٠. وتنظر: يتيمة الدهر ٢ - ١٢٥ .١٢٥
- (٢٣) الديوان ٣ - ٣٤٠ .٣٤٠
- (٢٤) الصبح المنبي .٨٨
- (٢٥) خزانة الادب ٢ - ٣٠٦ .٣٠٦
- (٢٦) ينظر الديوان: ج ١، ص ١٧ ، ج ٢، ص ٢٥٩ .٢٥٩. ج ٢، ص ٢٠٧ ، ٣٦٢ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ .٣٨٤
- (٢٧) ابن خلkan، وفيات الاعيان، تحقيق محمد محبي الدين عبد الحميد، ج ١، القاهرة ١٩٤٨، ص ١٠٤. ينفي الاستاذ عبد الغني الملاع وجود علاقة أو صلة بين المنبي وابن جنى، تنظر: مجلة الثقافة، العدد ٦، بغداد ١٩٧٧، ص ١٦٧.
- (٢٨) الديوان ١ - ٢٨٩ .٢٨٩
- (٢٩) يتيمة الدهر ١ - ١٢٦ .١٢٦
- (٣٠) - (٣٨) الديوان، ج ١، ص ٧٥ .٢. ج ٣، ص ٣ .٢. ج ١، ص ٢٩٠ ، ٢٨٨ .٥٦
- ج ٣، ص ٧٠ .٢. ج ٩٤ .٠. ج ٣، ص ٣٦٢ .٣٦٢
- (٣٩) ينظر: في هذا الكتاب الفصل الخاص بالحكمة، وفيه دراسة وشرح وافي لهذه القصيدة.
- (٤٠) الصبح المنبي .٨٧
- (٤١) شاكر .١٤٤

- (٤٢) الرأي لسعد بن محمد الاذدي المعروف بالوحيد ، ينظر: تاريخ النقد الادبي عند العرب ، ص ٢٨٩ .
- (٤٣) - (٤٨) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٣٥ ، ١٣٥ ، ٢٨٣ . ج ١ ، ص ٨٨ ، ٩٦ . ج ٤ . ص ١٣٨ .
- (٤٩) ينظر: الفصل الخاص بالمتني وكافور من هذا الكتاب .
- (٥٠) - (٥٢) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤١ ، ٣٨ ، ج ١ ص ٤ ، ١٢١ .
- (٥٣) شاكر ٨٧ .
- (٥٤) ، (٥٥) الديوان ، ج ٢ ، ص ١٤٣ ، ١ ، ج ١ ، ص ٩ .
- (٥٦) محمد عبدالرحمن شعيب ، المتني بين نقاديه ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٢٦ . وينظر: الصبح المتني ١١٣ .
- (٥٧) اشارة الى قول المتني في المقصورة: بهانطي من أهل السواد يدرس أنساب أهل الفلا .
- (٥٨) شاكر ١٤٩ .
- (٥٩) يتيمة الدهر ١ - ١٥٣ .
- (٦٠) تاريخ النقد الادبي ٣١١ . وينظر: النقد المنهجي ١٧٥ وما بعدها .
- (٦١) الصبح المتني ١٤٦ .
- (٦٢) المصدر السابق ١٤٧ .
- (٦٣) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٧ ، ٥٩ ، ١٦٠ .
- (٦٤) المصدر السابق ٢ - ١٧٠ .
- (٦٥) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨ .
- (٦٦) الجرجاني ، الوساطة بين المتني وخصوصه ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم وعلي محمد البجاوي ، القاهرة ١٩٦٦ ، المقدمة ، ص ب .
- (٦٧) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨ .
- (٦٨) حققها الشيخ محمد حسن آل ياسين ، بغداد ١٩٦٥ .
- (٦٩) يتيمة الدهر ١ - ١٣٨ .
- (٧٠) ، (٧١) الوساطة ٢ - ٥٣ .
- (٧٢) يتيمة الدهر ١ - ١٤٥ .
- (٧٣) الديوان ٣ - ١٣ .
- (٧٤) يتيمة الدهر ١ - ١٢٧ .
- (٧٥) ذكرى أبي الطيب ١٦٨ ، ومصادرها .
- (٧٦) تاريخ النقد الأدبي ٢٦٣ .
- (٧٧) الصبح المتني ١٤٢ .

- (٧٨) المتنبي بين نقاديه . ٢٣٦
- (٧٩) الصبح المنبي . ١٢٨
- (٨٠) المصدر السابق . ١٣٤
- (٨١) تنظر: الوساطة، ص ٢١٦ وما بعدها. والمتنبي بين نقاديه، ص ١٨١ . وما بعدها.
- (٨٢) مارون عبود، الرؤوس، ط ٣، بيروت ١٩٦٧، ص ١٩٩.
- (٨٣) يتيمة الدهر ١ - ١٤٤ وما بعدها.
- (٨٤) تنظر: الرسالة الخاتمية فيها وافق المتنبي في شعره كلام أرسسطو، تحقيق فؤاد أفرام البستاني، بيروت ١٩٣١.
- (٨٥) ينظر: الفصل الخاص بالحكمة من هذا الكتاب.
- (٨٦) ابراهيم العريض، فن المتنبي بعد ألف عام، بيروت ١٩٦٢ ، ص ٥٩.
- (٨٧) العبيدي ، الابانة عن سرقات المتنبي، تحقيق ابراهيم الدسوقي الباطي ، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٢٢ .
- (٨٨) شاكر ٩ . وينظر: رضوان الشهال، أبو الطيب المتنبي، عملاق الواقعية في الشعر العربي، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١١ وما بعدها.
- (٨٩) عبد الغني الملاح، المتنبي يسترد اباه، بغداد ١٩٧٤ .
- (٩٠) الديوان، ج ٢ ، ص ٣٨٥ ، ج ٣ ص ٢٩٩ ، ج ٤ ، ص ٢٥١ ، ١٦٤ .
- (٩١) الصبح المنبي . ١٧٤
- (٩٢) الدولة الحمدانية . ٢٨١
- (٩٣) ذكرى أبي الطيب . ١٩٠
- (٩٤) شاكر ١٦٦ .
- (٩٥) الديوان ٤ - ٥٩ .
- (٩٦) الصبح المنبي . ١٦٠
- (٩٧) الديوان ٤ - ١٩١ .
- (٩٨) ينظر: التكسب بالشعر، ص ٥٧ وما بعدها.
- (٩٩) ينظر للكاتب: الفصل الخاص بالمتنبي في (الشعر والزمن)، منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٥ ، ص ٣٩ وما بعدها.
- (١٠٠) ينظر: د. حسام الالوسي: «أصوات جديدة على نبوة المتنبي»، مجلة كلية الأداب، العدد ١٠ ، بغداد ١٩٦٧ .
- (١٠١) (١٢٣) الديوان، ج ٣ ، ص ١٦١ . ج ٢ ، ص ٣٤١ . ج ٤ ، ص ٩٤ . ج ٢ . ٢٢٤ ، ٣٧١ . ج ٤ ، ص ٢٢٣ ، ٢٢٣ ، ٢٢٣ . ج ١ ، ص ١٥ . ج ٣ . ٣٧٧ ، ٣٣٥ ، ١٧٧ ، ١٨١ . ج ٤ . ٤٠ . ج ١ ، ص ١٤٠ . ج ٤ ، ٤ . ج ٢١٠ ، ١٠٧ . ج ٤ ، ص ٣٢٣ ، ١٦٢ .

(١٢٤) ينظر: محمد كمال حلمي، أبو الطيب المتنبي، القاهرة ١٩٢١ ، ص ١٣٨ وما بعدها.
ويعني د. طه حسين بتأليف كتاب عن المتنبي يبدأ بقوله: «وليس المتنبي مع هذا من
أحب الشعراء إلي وآثرهم عندي، ولعله بعيد كل البعد عن أن يبلغ من نفسي منزلة
الحب أو الإيثار، ولقد أتى علي حين من الدهر لم يكن يخطر لي أني سأعنى بالمتنبي او
اطيل صحابته او ادمي التفكير فيه...»، وينهي بقوله: «أني حين أقبلت على صحابته لم
أكن جاداً ولا صاحب بحث ولا تحقيق وإنما كنت عابشاً»، مع المتنبي، القاهرة
١٩٦٠ ، ص ٩ ، ٣٧٧ ويقول المازني في الفصل الخاص بالمتنبي، في حصاد المضم،
ط ٧، القاهرة ١٩٦١ ، ص ١٢٦ : «وقد أبدأ قصيدة للمتنبي فلا ألم قراءتها...
ولكني على شغفي بغيره، وقلة اقبالي ومواظبي عليه... أراني أحفظ من شعره»،...
الخ. والامثلة كثيرة.

المتنِي والحكمة

أفترض هنا أن المتنِي ليس شاعر حكم، طبقاً لما هو مشهور عنه، بتجريد وانفصال عن الحدث في القصيدة، وإن قسماً من أبياته التي عرفت بين الناس على أنها من الحكم كان يهدف من ورائها إلى مقاصد أخرى لم يستطع أن يكشف عنها فتستر بالحكمة، كالشاعر المحدث الذي جاء إلى الرمز والاسطورة أحياناً ليعبر عن معانٍ لا يستطيع الافصاح عنها مباشرة^(١). وأسأحاول أن أبين أن وحدة الموضوع يجب أن تتوافق في النص الأدبي وفي ذهن من يقرأ ذلك النص، لتم عملية فهمه متكاملة، وإن من شروط هذه الوحدة عند الشاعر أن يعبر عن تجربة معينة أو موقف محدد، وعند القارئ أن يلم بالظروف النفسية التي احاطت بالشاعر حين نظم قصيده. ولأن فريقاً من القراء والنقاد لا يمكن أن يستوعبوا النص الأدبي كاملاً لمعجالتهم ولتشتت افكارهم واهوائهم وخطأ تاريخي ساد طريقتهم في تناول النص الشعري، أظن أن قسماً من شعرنا القدم والحديث لم يقرأ قراءة صحيحة وقد جزأنا، عبر العصور المتعاقبة، قصائد عدة واحتضنها لرغبتنا الشخصية وقابلياتنا الثقافية.

ووجدت أن بعضـاً من طرقنا في دراسة النص الأدبي يشبه إلى حد بعيد عملية معمارية يقوم بها مهندس مخبل، فإذا طلبنا منه أن يقدم تقريراً عن المواد الانشائية لعمارةٍ انتهـى بناؤها حديثاً، عمد إلى تهديمها كلـياً ليدرس

كل حجر منفصلً ثم يعود فيخضع المواد التي شاركت في تفاصيل البناء إلى اختبار فلا نحصل في النهاية إلا على حطام مع تقرير ممتاز يشير إلى جودة تلك المواد. فبعض الناس ينظر إلى الأثر الأدبي جملةً أو إلى القصيدة بيتأ بيتأ، لا يستطيع أن يحكم على البناء إلا بتهديه وفحصه جزأً، لذا قال قسم من النقاد في معرض تناولهم لنصوص معينة إن الشاعر لو استعمل هذه الكلمة لكان أوقع .. الخ، انهم يفتحون جزءاً ضئيلاً من الضوء على النص الأدبي ويدرسون فقط ذلك الجزء المضاء ثم ينتهيون منه فيسلطون الضوء على جزء آخر وهكذا. يقول ابن رشيق: «انا استحسن ان يكون كل بيت قائماً بنفسه لا يحتاج إلى ما قبله ولا إلى ما بعده»^(٢)، ولعله يقصد الاستقلال اللغوي أو التركيبي، فلا يصح في القصيدة القديمة أن ينتهي بيتاً أو فاعل، خبره أو مفعوله في البيت الثاني، ولكن يجب أن يكون البيت منسجماً والآيات الأخرى لتم وحدة الموضوع، وأن يفهم من خلال القصيدة، ولا بد من الاستعانة بظروف نظمها واحاسيس صاحبها وقت ابداعها، ليتضح معناه فيها لا أن تعدّ القصيدة، دوماً، مجموعة حكم أو حقائق أو صور منفصلة أو تجارب مختصرة، تجزئها كما نشاء ، ونقطع منها ما نريد ، ونقرأ البيت الواحد فنقف عنده وكأن لا علاقة بينه وبين الآيات الأخرى ، والقصيدة التي تفتقد وحدة الموضوع حقاً، إن كانت من الشعر الجيد ، ينتظمها إطار من مشاعر صاحبها ومن نوازعه ودوافعه وتطلعاته وحالته النفسية ، وهذا ما نراه في قصيدة المتنبي ، وفهم هذا الإطار يغوص عن تلك الوحدة ، وما ذنب الشاعر إذا لم تبتعد قصيده في ذهن القاريء وحدة ما ، فيجزئها آياتاً ويفهمها كما يشاء ولا يكون بمقدوره أن يستوعب فكرة الشاعر كاملة^(٣). ونعود إلى حكم المتنبي ونتخاذل من قصيده التالية مثلاً يظهر إلى أي مدى تستطيع التجزئة أن تخرب النصوص الأدبية ، فهل استطعنا بها أن نفهم قصيده فهماً جيداً؟ وهل أدر كنا موقفه بوضوح؟ مع تأكيد أن ما يصح في هذه القصيدة قد لا

يصح مع كل قصائده.

ورد في شرح العكري ان المتنبي : « قال يعاتب سيف الدولة ، وانشدتها في محفل من العرب ، وكان سيف الدولة اذا تأخر عنه مدحه شق عليه ، واحضر من لا خير فيه ، وتقدم اليه بالتعرض له في مجلسه بما لا يحب ، واكثر عليه مرة بعد مرة فقال يعاتبه » ^(٤) :

واحرَّ قلبِيَاهُ مِنْ قلْبِهِ شَمْ
وَمِنْ جَسْمِي وَحَالِي عَنْدَهُ سَقْمُ
مَالِي أَكْتَمْ حَبًّا قَدْ بَرِي جَسْدِي
وَتَدْعَيِ حَبْ سِيفَ الدُّولَةِ الْأَمْمِ
إِنْ كَانْ يَجْمَعُنَا حَبًّا لَفَرْتَهُ
فَلَيْسَ أَنَا بِقَدْرِ الْحَبِّ نَقْسُمُ
قَدْ زَرْتَهُ وَسِيَوْفُ الْهَنْدِ مَغْمَدَةً
وَقَدْ نَظَرْتُ إِلَيْهِ وَالسِّيَوْفُ دَمُ
فَكَانَ أَحْسَنُ خَلْقِ اللَّهِ كَلْهُمْ
وَكَانَ أَحْسَنَ مَا فِي الْأَحْسَنِ الشَّمِ
فَوْتُ الْعَدُوِ الَّذِي يَمْتَهِ ظَفَرُّ
فِي طَيْهِ أَسْفَّ فِي طَيْهِ نَعْمُ
قَدْ نَابَ عَنْكَ شَدِيدُ الْخُوفِ وَاصْطَنَعْتُ
لَكَ الْمَهَابَةَ مَا لَا تَصْنَعُ الْبَهُومُ
أَلْزَمْتَ نَفْسَكَ شَيْئًا لَيْسَ يَلْزَمُهَا
إِنْ لَا يَسْوَارِيهِمْ أَرْضٌ وَلَا عَالمٌ
أَكْلَمَا رَمْتَ جِيشًا فَانْشَنَى هَرْبًا
تَصْرَفْتَ بِكَ فِي آثَارِهِ الْهَمَمُ
عَلَيْكَ هَزْمَهُمْ فِي كُلِّ مَعْتَكِ
وَمَا عَلَيْكَ بِهِمْ عَارٌ إِذَا اهْزَمُوا

أَمَا تَرَى ظَفَرًا حَلَوْا سَوِي ظَفَر
تَصَافَحْتَ فِيهِ بِيَضْهَرُ الْهَنْدِ وَاللَّمْ

تحدث الناس عن هذه الآيات وأسهوا في شرحها واعراها ، ولم ينتبهوا الى التعريض بأصحاب سيف الدولة في البيتين الثاني والثالث ، والى ضعف المديح في الآيات الأخرى ، مقارنة بينها وبين اماديع المتنبي ، والى اقتصار المديح على صفة الشجاعة التي عرفت عن سيف الدولة ، ولا قيمة لها في الشعر ان لم يصاحبها الابداع في عرضها ، والى تكلف المتنبي في البيت الخامس بأن المدوح احسن خلق الله ، بما هو شائع من اطراء متداول بين أبسط الناس ، يوحى اليانا بأنه نظم آيات المديح مرغماً لينتهي الى ما يريد ، وان هذه الآيات مقدمة لقصيدة تعاتب وتندح وتوطئ لثورة الشاعر على سيف الدولة فيتهم بال مجرور والظلم ، ولكن في ضعف واستخدا :

يَا أَعْدُلُ النَّاسِ إِلَّا فِي مُعَامَلَتِي
فِيكَ الْخَصَامُ وَأَنْتَ الْخَصْمُ وَالْحَكْمُ

وهذا البيت ذكر في مناسبات شتى بعيدة عن مقاصد الشاعر ومناخه النفسي ، ولحن وغني وطبقت عليه المقاييس البلاغية ، وهو يمثل المطلع والبداية الحقيقة للقصيدة ، وما آيات المديح الا قناع وتحطيم ومهارة في التمهيد للهجوم الذي سيقوم به الشاعر في الآيات الأخرى ، وكان بمثابة تحفز يهيء له ان يتهم سيف الدولة بالرؤبة الكاذبة :

أَعِذْهَا نَظَرَاتٍ مِنْكَ صَادِقَةٌ
أَنْ تَحْسَبَ الشَّحْمَ فِيمَنْ شَحَّمَهُ وَرَمَ

ويشرح الصاحب بن عباد هذا البيت بقوله : « ان نظراتك صادقة فأعذها ان تخدعك فتحسب الورم شحما ، وهذا المثل اراد به ان لا يقيس من دونه بالمرتبة بمقاييسه وان لا يعامله كمعاملته ، فهو بالنسبة لغيره كالسليم والغير كالستيم » ^(٥) .

ولا يلبت ان يوغل في التعريض بقوله:

وما انتفاع اخي الدين بناظره
اذا استوت عنده الانوار والظلم

وسيف الدولة هو المعنى بهذا البيت يصفه الشاعر بأنه ظالم ، عات ، مضلل ، لا يفرق بين الصديق والعدو والمزيف وال حقيقي والجيد والرديء ولا ينتفع بنظريه وادراكه ، فأي ثورة هذه التي جعلت المدوح العظيم ، بعد ان ابدع الشاعر في تمجيده ، بصدق وإباء و Moderator ، يقع في وهدة الغضب والنقمة . واقتنط الناس هذا البيت ورددوه على انه حكمة رائعة في حين انه اهانة واضحة اذا قرأناه جزءاً لا ينفصل عن اطار القصيدة العام ، ولم نقتطعه منها فينحصر عنه الاحساس الذي أملى على الشاعر قوله ذاك ، وكم من المرات قريء هذا البيت منفرداً حكمة خالصة . انه تعبير أدبي غير مباشر ذو حكم عام الا ان الشاعر قصد به شخصاً معيناً بذاته ، وهو كالبيت السابق ليس من الحكمة في شيء ، وانت اذا جردناه من القصيدة فقد كل رواه وحياة وحرارة ويكتفي العكاري في شرحه له : « وما ينتفع اخو الدنيا بناظره ... اذا استوت عنده الصحة والسلام والانوار والظلم ، والمعنى : يجب ان تميز بيني وبين غيري من لم يبلغ درجتي ، كما تميز بين النور والظلمة ، وهو منقول من قول الحكم ارسطوطاليس : اعتدال الامزجة وتساوي اركان الانسان تفرق بين الاشياء واصدادها »^(٦) ، اما الصاحب ابن عباد فيشرحه : « ما انتفاع الإنسان بنظره اذا استوت عنده الانوار والظلم؟ ويريد انه يجب التمييز بينه وبين سواه كما يميز بين النور والظلم »^(٧) .

ويقول المتنبي :

سيعلم الجمّعُ من ضمَّ مجلسنا
بأنني خيرٌ من تسعى به قدمٌ

أنا الذي نظر الاعمى الى أدي
 وأسمعت كلماتي من بن به صممُ
 أنام ملء جفوني عن شواردها
 ويسهرُ الخلق جراها وينتقمُ
 ويشرح العكاري البيت الثاني والثالث : « يريد ان شعره سار في آفاق
 البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى والاصم فكان الاعمى رأه لتحققه
 عنده، وكان الاصم قد سمعه، ويقول : أنام ساكن القلب ، متمنن النوم
 لا أعجب بشوارد ما أبدع ولا احفل بنوادر ما انظم »^(٨) ، ويرى
 البرقوقى : « ان شعره سار في آفاق البلاد واشتهر حتى تحقق عند الاعمى
 والاصم أدبه فكان الاعمى رأه لتحققه عنده، وكان الاصم قد سمعه ...
 ويقول : انا أنام ملء جفوني عن شوارد الشعر لا احفل بها لأنني ادركتها
 متى شئت بسهولة ... »^(٩) .

ولكن الشاعر في هذين البيتين يقدم نفسه الى سيف الدولة ورهطه من
 حضروا المجلس ، كأنهم لا يدركون من أمره شيئاً بالرغم من السنين التي
 قضوها في حلب ، بأنه خير من الناس جميعاً ومن سيف الدولة وأصحابه
 الذين لا يريد ان يرقى بهم الى مستوى الاعمى والاصم في فهم شعره ،
 لأنهم ، وقت انشاد القصيدة ، دون ذلك جهلاً وحقداً ، وهذا هجاء مقدع
 اتخذ شكل الفخر تستراً كما اتخذت اهانات المتبني لسيف الدولة في هذه
 القصيدة ، شكل الحكمة قناعاً ، وقد فضل نفسه ، في البيت الاول ، على
 سيف الدولة وصاحبه ايغالا في التحدى ، والأبيات الاربعة عشر السابقة
 مقدمة وتوطئة لهذا البيت الذي بلغ به الفخر أوجه إثارة لاعدائة وانعكاساً
 للإهانة التي لحقته منهم ، وهو لا يستطيع طبقاً للتقاليد السائدة ان يبدأ به
 القصيدة . ويثور الشاعر بعد ذلك ثورة عارمة ويهدد تهديداً واضحاً :

وجاهلٍ مَدَّه في جهلِه ضحكي
 حتى أنته بـ دُـ فـ رـ اـ سـ ة وـ فـ مـ

اذا نظرتَ نیوبَ الليث بسازةً
فلا تظنن ان الليث يبتسمُ

ولكن العكري يشرح البيت الاول بقوله: «رب جاهل خدعه تركي
له في جهله وضحكي منه حتى افترسته بعد زمان فأهلكته...»^(١٠) ، ويروى
البرقوقي: «انه يغضي عن الجاهل ويحمل الى ان يجازيه ويعصف به»^(١١)،
وواضح من هذا الشرح اعتقاد البيت مستقلًا عن القصيدة وصاحبها ، ولم
يسأل الشراح: من يكون هذا الجاهل؟ ويستمر المتنبي في تهديده ويبالغ في
شجاعته وان ليس بمقدور أحد التغلب عليه:

ومهجةٌ مهجتي من همْ صاحبها
ادركهَا بجوابِ ظهره حرم
رجلاه في الركض رجلٌ واليدان يد
وفعله ما ترى د الكفُ والقدمُ
ومرهفٌ سرتُ بين الجحفلين به
حتى صربتُ وموج الموت يلتقطُ
فالخيلُ والليلُ والبيداء تعرفي
والسيفُ والرمحُ والقرطاسُ والقلمُ
صحبت في الفلوات الوحشَ منفرداً
حتى تعجب مني القورُ والأئمُ
ثم يعاتب بمرارة و Yasif ويتهم سيف الدولة بأنه لا يحفظ ذمة ولا يرعى
عهداً:

يا من يعزُ علينا أن نفارقهـم
وجـدانـا كـلـ شيءـ بعدـكمـ عدمـ
ما كانـ أـخـلـقـناـ منـكـمـ بتـكرـمةـ
لوـأـنـ اـمـرـكـمـ منـأـمـنـاـ أـمـمـ

ان كان سرگم ما قال حاسدنا
فما لجرح اذا ارضيام الـ
وبينما لو رعيم ذاك معرفة
ان المعارف في اهل النهي ذمم
كم طلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
وتفضي الايات الثلاثة الاولى بأن الشاعر ما زال وفياً لسيف الدولة
وانه لا يريد الفراق الا مكرهاً وان ذلك الفراق سيصييه بحزن عميق يريه
الحياة عدما والأشياء خاوية، ولكن سرعان ما يعود الى صوته الاول
فيقول: ان بينه وبين سيف الدولة معرفة، لا يرعاها، وان المعارف ذمم
ولكن في أهل النهي والعقول، فسيف الدولة، اذن ليس منهم، وهذا هجاء
خفى وليس حكمة او مثلاً سائراً. ويتحدى الحساد والوشاة ان يجدوا فيه
عيباً ثم يفخر بنفسه ويعتذر بها كثيراً وهو في حضرة الامير امعاناً في
اغاظته واهانة مجلسه:

ما أبعد العيب والنقصان عن شرف
أنا الثريا وذان الشيب والهرم
ليت الغام الذي عندي صواعقه
يزيلهن الى من عنده الديم
ويهدد بان الندم سيتحقق بسيف الدولة ورهطه اذا ما فارقهم الشاعر:

ارى النوى تقضيني كل مرحلة
لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميراً عن ميامنتنا
ليحدثنَّ لمن ودعتم ندم
اذا ترحلت عن قوم وقد قدروا
أن لا تفارقهم فالراحلون هم

ويعدُّ الصاحب بن عباد البيت الأخير من الأمثال ويشرحه : « اذا رحلت عن قوم وهم قادرون على اكرامك منعا لك من الرحيل ، فكأنهم هم المسبيون فيه والذين اختاروا الفراق الذي لجأت اليه مضطرا مكرها »^(١٢) ويرى الحاتمي ان المتني اخذ هذا البيت من قول ارسسطو : « من لم يرتك لنفسه ، فهو الثاني عنك ، وان كنت قريبا منه ، ومن يرتك لنفسك فأنت قريب منه ، وان تباعدت أنت عنه »^(١٣) .

وبعد ان يقول الشاعر :

شَرُّ الْبَلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بَه
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصْمُ

يصل الى قمة غليانه النفسي فيقرر انه في كل هذه السنين الطويلة كان يمارس اعمالاً لا تتلاءم وشاعريته ومتزنته وانه اهان نفسه وأهدر طاقاتها في سوق مدائح الملوك الذين لا قدرة لهم على التمييز بين الصالح والطالع : « وان هبات سيف الدولة وان كثرت على جلالتها وسعتها : لا تعامل تقصيره في حقه وايثاره لحساده »^(١٤) ، وان ما حصل عليه الشاعر من جوائز تساوي فيه مع حاسديه ومناوئيه ، وكيف يجوز لسيف الدولة ان يستمع الى اناس لا قيمة لهم ، وعنه الشاعر الكبير الذي اضطر الى العتاب والتعریض بمدحه لعله يذل الحساد وينعى القطيعة والفرقان :

وَشَرُّ مَا قَنْصَتْهُ رَاحِي قَنَصْ
شَهْبُ الْبَرَازَةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ
بَأَيِّ لَفْظٍ تَقُولُ الشِّعْرَ زَعْنَفَةَ
تَجْوِزُ عَنْدَكَ لَا عُرْبَ وَلَا عَجَمُ
هَذَا عَتَابُكَ إِلَّا أَنَّهُ مِقَةَ
قَدْ ضُمِّنَ الدَّرَّ إِلَّا أَنَّهُ كَلْمَ

فain أبيات هذه القصيدة ، في دراساتنا المختلفة ، من اطارها العام

وثورة صاحبها النفسية؟ ان هواة جمع الصائق والامثال والحكم قد جزأوها وحفظوا بعض ابياتها ليزخرفوا بها احاديثهم اليومية: «وما من كاتب او خطيب او متكلماً او مناظراً او مدرس الا وله من حكم المتنبي مدد اي مدد»^(١٥) ، ولم تنبه محاولة جدية لاغتيال الشاعر بعد القاء هذه القصيدة، الى معرفة الاسباب الكامنة وراء ذلك، والى الاهانات التي تضمنتها ابياتها، فالمتنبي لم يكن بسعه ان ينهي لمحاتيه مباشرة انه لا يميز بين الغث والسمين ولا يفرق بين الجيد والرديء لذا لجأ الى ما عدناه نحن من الحكم خطأ فقال:

وما انتفاعُ أخي الدنيا بـناظرهِ
اذا استوت عنده الانوارُ والظلم

وإذا جردنا هذا البيت من القصيدة وظروف ظلمتها وأحساس صاحبها اتخذ شكل حكمة، في حين انه اهانة وهجاء واضح، وقد تتبع طريقة الشاعر ذاتها في حياتنا اليومية، اذا اردنا ان نعبر عن معنى تخشى ان يجر عواقب، فنغلقه باطار حكمي معين يموج ذلك المعنى على نحو ما، ولكن هذا الامر لم يكن بمقدوره الشراح استيعابه، لتجزئته في اذهانهم ومواقفهم من الشعر الذي يفهمونه بيّناً بيّناً، والمتنبي لم يكن في هذه القصيدة صائغ حكم اراد ان يرسل منها جهراً ليستعملها الناس عند الحاجة وليتتفعوا بها فكأنهم يقرأون انفسهم فيما قاله الشعراً ويفهمون من المعاني ما يتافق وهو اهم ولا أظن ان المتنبي كان ينظم الافكار التجريدية الدائرة في اذهان الناس حكماً: «وعني الشاعر العباسي في مدحته بالحكم... حتى كان المتنبي يبلغ بها الغاية التي ليس وراءها غاية، وكأنه صاغ للناس كل ما يمكن ان يجري في خواطرهم... ولا يكاد يوجد اديب عربي منذ عصره الا وهو يحفظ من حكمه ويستشهد بها في معارض كتاباته واحاديثه»^(١٦) ، فلم يكن الشعراً العباسيون جميعاً من المداحين، ولم تتضمن قصائد المديح دائمًا حكماً، وعُدَّ المتنبي، بالرغم من هذا وذاك، صاحب أمثال جعها له

الصاحب بن عباد لأنها «فصول» شعره فهي تمثل «لب اللب»^(١٧)، والرسالة الحامية لم تخدم مجد المتنبي، ولكنها شجعت على تحزئة تراثه الشعري وبعترته: «ثم ان هذه الرسالة - منها يكن قصد مؤلفها - قد خدمت مجد المتنبي اذ لفت النظر الى ما في شعره من آراء فلسفية، وهذا ما رأته الاجيال المتعاقبة ميزة خاصة للمتنبي، ومن المعلوم ان العقلية السامية بوجه عام تميل الى الحكم المركزية»^(١٨)، يقول الحافي في رسالته: «ووجدنا ابا الطيب ، احمد بن الحسين ، المتنبي ، قد أتى في شعره بغراض فلسفية ، ومعانٍ منطقية ، فان كان ذلك منه عن فحص ونظر وبحث ، فقد اغرق في درس العلوم ، وان يك ذلك منه على سبيل الاتفاق ، فقد زاد على الفلاسفة بالايجاز والبلاغة والالفاظ الغربية ، وهو في الحالتين على غاية من الفضل وسبيل نهاية من النبل»^(١٩) .

ويقول الزمخشري: «ولا كالمتنبي بين الشعراء من كانت اقواله مضرب المثل ، لما حوتة من الفصاحة وحسن البيان ، ولهذا اخترنا لك الابيات التي جمعها الوزير اسماعيل بن عباد لسلطانه فخر الدولة بن بويه ، لقيمتها الادبية ولأنها حلية تزين بها رسالتك ، ومجالسك ، وتعرض لك في كل مناسبة من المناسبات وقد قدمنا لك كل بيت شرعاً وجيزاً ... والله الموفق»^(٢٠) ، ويطري التعالي قصيدة (واحر قلبه) بان أكثر ابياتها مستقلة بذاتها !! وانها بارعة لولا اساءة للادب فيها: « وهي على براعتها واستقلال اكثر ابياتها بانفسها تقاد تدخل في باب اساءة الادب بالادب »^(٢١) .

«ان امثال المتنبي لو اقتطعت من ديوانه لكان في ذاتها ديواناً يعجز اي شاعر فحل ان يأتي بمنته»^(٢٢) ، «اما شعره الحكمي فليس له مكان خاص في ديوانه بل انه يتسرّب فيه من اوله الى آخره. ولذلك يجب على الناقد ان يؤلف من هذه المترافقات المتشتّطة مجموعة مرتبطة الاجزاء جديرة بان تمنح الشاعر لقب الحكيم. اما حكمته فعملية مجدها الاخلاق وتصوير حالات النفس»^(٢٣) ، «واذا خلد المتنبي ، فان الذي يخلده ، اغما هي تلك

الحكم الرائعة التي استفاضت في شعره، فاستشهد الناس بها، بحسب ما يقتضيه مقام الاستشهاد، فكأن ابا الطيب لسان حال البشر بأجمعهم، فقد يقذف المتنبي في بيت او في بيتين مذهبها فلسفياً أو علمياً، يشغل به المفكرون كل حياتهم»^(٢٤) ويرى ماسنيون: «انه يوجد هنا وهناك عند المتنبي ، حكم ذات ايجاز مؤثر ، ومعرفة بالنفس قوية»^(٢٥).

اما ذلك الحوار الذي تذكره الكتب القديمة من ان ابا فراس كان حاضرا مجلس سيف الدولة وبدأ يعرض على القصيدة ويرد أكثر عيونها الى أصول جاهلية واسلامية ويتهم المتنبي بالسرقة ، والشاعر لا يأبه له ويستمر في إلقاء قصيده ، فتكثّر دعاویه فيها فيضر به سيف الدولة بالدواة ثم يسترضيه ، فأمر موضوع اختلقه أحد خصوم المتنبي ، وقد ذهب الى هذا الرأي قسم من النقاد ومؤرخي الأدب^(٢٦).

ويقول محمد مهدي البصیر : «على انه من المهم ان نعرف السبب الذي يدفع المتنبي الى تسجيل خطراته النفسية في كثير من قصائده ومقاطعاته، فهو الرغبة في تقرير مذهب فلسي ام هو الرغبة في تأييد وجهة نظر يقتضيها مدح مدح او الترفیه عن خاطر صديق محدود او التعبير عن عاطفة مكبوتة وشعور مكظوم؟ انك اذا رجعت الى ديوانه وتدربرت حكمه وامثاله وتأملتها طويلا رأيت ان السبب الثاني هو الذي يعليها عليه»^(٢٧).

ويرى محمود محمد شاكر : «ان لكل حكمة في شعره اصلاً تاريخياً في قلب هذا الشاعر الذي لم يكن قلبه ينسى شيئاً او يفلته، وكأنه به - وهو يقول البيت السائر والمثل الشرود - كانت تتراءى تحت عينيه ، ويدوی في مسمعه، كل ما مر به مما أثر فيه، فيقول البيت وفي كل لفظة منه سبب محدود الى ذكرى يذكرها او فكرة يتخللها»^(٢٨).

اننا لا نستطيع ان نتفهم الشعر جيداً اذا قرأنا القصائد مجزأة ومقطعة

وبعثرنا ابياتها حكماً متفرقة وامثلة بلاغية او نحوية او عروضية، لقد رد فريق من الناس ابياتاً في بعض المناسبات، دون ان يفهموها، لا لأنهم اعجبوا بها وعاشوا تجربتها وانما ليظهروا برأتهم اللغوية والادبية ويرصعوا احاديثهم اليومية بها. ان البيت الذي نقرأه بعيداً عن القصيدة هو جزء مقطوع منها جردناء من اصله ومن جو القصيدة العام، وقد ضاع شعر وتبدل ابداع في خضم هائل من التجزئة الدائمة، وقد عرف عن بعض الشعراء القدامى انهم لم يرتضوا ان يقتطعوا أو يسقطوا أي بيت من قصائدهم، وقيل عن أبي تمام إنه: «كان يأتي بالقصيدة البدعة وفيها البيت الرذل فيتمسك به ولا يرى إسقاطه»^(٢٩).

وشوه صفي الدين الحلي أبيات قصيدة (واحر قلبه) وأبيات أخرى من لامية الطغرائي بتشطير يضم صدراً من هذه وعجزاً من تلك، فأهان الشاعرين والتجريبيين وأضر بالقصيدتين وافصح عن عبث لا داعي له. وبالرغم من ذلك قيل: انه كان بارعاً في عمله هذا^(٣٠) ، فأي فهم للشعر، عند صفي الدين او غيره، يمكن ان يبرر هذا التشويه:

قل للخلي الذي قد نام عن سهرى
ومن بجمسي وحالي عنده سقمُ
تنامُ عيني وعينُ النجم ساهرة
واحرَّ قلباًه من قلبه شمُ
فالحبُّ حيث العدى والأسدُ رابضة
فليت أنتا بقدر الحب نقتسمُ
حبُّ السلامِ يشني هم صاحبه
اذا استوت عنده الأنوار والظلمُ
أهبتُ بالحظ لو ناديتُ مستمعاً
وأسمعتَ كلماتي من به صممُ

وحسنٌ ظنك بالايمام معجزة
ان تحسب الشحم فيمن شحمه ورم

ان اقطاع جزء من قصيدة يحيط فيه حيوته ويفصله عن جذوره كاقطاع اي عضو من كائن حي، وحق القصائد التي تفتقد وحدة الموضوع يجب ان تقرأ كاملاً وان تفكك بأحساس قائلها وتجربتها، ولا بد من علاقة تربط بين الموضوعات التي تتناولها القصيدة، وهذه العلاقة هي الشاعر نفسه، علينا الا نتناساه، ومن حقه ان نفهمه، ولكل قصيدة اطار ينظم ابياتها، منها تعدد اغراضها، يقول طه حسين: «ومن اخص العيوب التي يؤخذ بها النقاد الذين نقدوا ابا تمام والبحتري والمتني انكم لا تجدون أحداً من هؤلاء النقاد ينقد القصيدة من حيث هي قصيدة، فهم اذا قرأوا اجل قصائد ابي تمام والبحتري والمتني لا ينظرون اليها جملة، كيف استقامت الفاظها ومعانيها واسلوبها، واما يقفون عند البيت والبيتين، أأجاد الشاعر في هذا التشبيه ام لم يجده؟ اوفق في هذا التعبير ام لم يوفق؟ وما هكذا نتصور المثل الاعلى للنقد الأدبي»^(٢١).

ونصبح بعيدين عن الابداع في أدبنا، بتجزئتنا لنصوصه، وعجالتنا في فهمه، ولا بد لنا ان نتمثل تجربة الشعراء، وان نستوعبها كاملاً، وان ندركها بأننا وصبر، والا نضفي عليها اشياء غريبة من ذواتنا فنحوها عن حقيقتها.

(١) نشر هذا البحث مختصراً في مجلة الجامعة المستنصرية، العدد ٢ ، بغداد ١٩٧١ ، وجرى عليه تغيير وتنقيح، ويعاد نشره هنا لأهميته بالنسبة الى الشاعر وتراثه الشعري وفهمنا لأياته.

(٢) ابن رشيق القررواني ، العمدة ، ج ١ ، القاهرة ١٩٠٧ ، ص ١٧٥ .

(٣) ينظر: بحث المؤلف عن وحدة الموضوع في مجلة الموزد ، العدد الثاني ، المجلد الرابع ، بغداد ١٩٧٥ ، ص ٢١ وما بعدها .

- (٤) العكيري ٣٦٢-٣. ويرى طه حسين: أن القدماء والمحدثين قد أكثروا من الحديث عن هذه القصيدة وان من يدرسها لن يأتي بجديد، ينظر: مع المتنبي، القاهرة ١٩٦٠، ص ٢٤٢.
- (٥) أمثال المتنبي، جمعها الوزير اساعيل بن عباد المشهور بالصاحب لسلطانه فخر الدولة بن بويه، شرحها وضبط الفاظها وعلق عليها زعدي يكن، صيدا بلا تاريخ، ص ١٥٠.
- (٦) العكيري ٣٦٧-٣.
- (٧) أمثال المتنبي ١٥١.
- (٨) العكيري ٣٦٧-٣٦٨.
- (٩) شرح ديوان المتنبي، وضعه عبد الرحمن البرقوقي، ج ٤، ط ٢، القاهرة ١٩٣٨، ص ١٠٨، ١٠٩.
- (١٠) العكيري ٣٦٨-٣.
- (١١) البرقوقي ٤-٤.
- (١٢) أمثال المتنبي ١٥١.
- (١٣) الخاتمي، الرسالة الحاخامية فيها وافق المتنبي في شعره كلام أرسطو في الحكمة، تحقيق فؤاد افرايم البستاني، بيروت ١٩٣١، ص ٣٠.
- (١٤) العكيري ٣٧٣-٣.
- (١٥) أحد الاسكندرى، الوسيط في الادب العربي وتاريخه، ط ١٦، القاهرة بلا تاريخ، ص ٢٧٤.
- (١٦) د. شوقي ضيف، المجلة، العدد ٩٧، القاهرة ١٩٦٥، ص ٢٦.
- (١٧) أمثال المتنبي ٤.
- (١٨) د. محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب، القاهرة ١٩٤٨، ص ٢٠٨.
- (١٩) الرسالة الحاخامية ٢٣.
- (٢٠) أمثال المتنبي ٥.
- (٢١) الشاعلي، يتيمة الدهر، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ج ١، ص ٢٠٨.
- (٢٢) محمد عبد الفتاح ابراهيم، المتنبي، القاهرة ١٩٣٥، ص ٦٤.
- (٢٣) محمد كمال حلمي، ابو الطيب المتنبي، القاهرة ١٩٢١، ص ٢.
- (٢٤) الرأي لشفيق جبرى، ينظر: بلاشير، ديوان المتنبي في العالم العربي وعند المستشرقين، ترجمة احد احمد بدوى، القاهرة بلا تاريخ، ص ١٦٨.
- (٢٥) المصدر السابق ١٠٣.
- (٢٦) ينظر: محمد مهدي البصیر، في الادب العباسى، بغداد ١٩٤٩، ص ٣٤٤. ومندور ١٦٥، ١٦٦. ويقول طه حسين: «وليس من شك في أن هذه القصة قد ألفت تاليفاً»

= في وقت متأخر ، ولكنها على كل حال تعطي ظلاماً كان في مجلس سيف الدولة حين اشتدت هذه القصيدة » ، مع المتنى ٢٦٣ .

(٢٧) البصیر ٣٨٤ .

(٢٨) شاکر ٧٦ .

(٢٩) ابو الفرج الاصبهاني ، الأغاني ، كتاب التحرير ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ١٧٣٨ .

(٣٠) دیوان صفی الدین الحلی ، دار صادر ، بیروت ١٩٦٢ ، ص ٥٤ .

(٣١) طه حسین ، من حدیث الشعر والثر ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ١٧٨ .

رثاء الانسان

ليس المتنبي حكياً في أبيات مفردة أو أنصاف أبيات اقتطعها الشراح من قصائد متكاملة بضمونها ، ووضعوا لها قوائم ، واعجبوا بما اكتشفوا وجزأوا ، وحفظها الناس ورددوها كما يشاؤون ، على وفق رغباتهم الشخصية . وأفقدوها روءها وحيويتها ومعناها ، ولكن يمكن ان يصبح المتنبي حكياً في موقفه من الزمن^(١) ، وصراعه مع الدهر ورثائه للانسان ! ان كنا نؤمن بأن الشعر يصنع الحكمة وان الشاعر البارع يجب أن يكون حكياً ، والا نرى في الحكمة ، بمنطقها العقلي البارد المجرد ، ومعادلاتها المتزنة ، تضاداً مع شاعرية تضرب في اعمق احساسات الانسان بعيداً عن الامثال والنصائح والحقائق الثابتة التي تحول إلى عزاء رخيص لمن ابعد عن نوازع الرفعة ، وأحس بأسف على نفسه لأنانية فيه تود ان تستحوذ على الدنيا ، ولم يستهوه شرف المحاولة ، وفيض الامتزاج بين الانسان والكون ، ولم يعان من لغز الحياة المحرر ولم يضنه نقصه عن بلوغ كمال المعرفة فيتطلع إلى آفاق جديدة وريادة دائمة .

ومتنبي ، إن كان حكياً ، نفتقد حكمته ، بمفهومها المتداول الشائع ، في أفكاره وموافقه وأحداث حياته ، ولكنه شاعر ومحرك وانسان له خطرات وتأملات ذهنية وفلسفية ، لا نبحث عنها في انصاف أبيات ، ولكن في شعره جيغاً ، ونجد جزءاً كبيراً منها في رثائه للانسان ، او رثائه لنفسه ،

دون ان يحظى هذا الموضوع باهتمام كبير من شعراء سابقين.

يمزج ابو الطيب رثاءه باحساس صادق ومحقق ازاء الموت تحالفاته الدهشة والخيرة ، فيرثي في مراثيه نفسه والآخرين ، ويأسى لل المصير الفاجع الذي يتسرّب الى حياتنا ببطء وهدوء ، يوماً بعد يوم ، يحرمنا من أحبابنا ، ثم لا يلبث ان يطويانا في غياهبه ، ولكنه يدرك أهمية توارث الاجيال ، وتبادل الواقع بين البشر ، وتجدد الحياة بالموت ، ويرى ، بشاعرية نافذة ، ان الغتصاب قائم بين قادم وراحل ، والنضال خفي واقع بين جديد وقديم ، يستغل الانسان بقاءه من اسلافه ، ولا معنى للحياة بلا موت ، ولا للشجاعة والكرم والصبر ولكن ان يأتي الموت الانسان بعد سنين طويلة^(٢) :

وقد فارق الناسُ الاحبةَ قبلنا
وأعيا دواء الموت كل طبيبِ
سبنا الى الدنيا فلو عاشَ اهلها
معنا بهَا مِنْ جيئَةٍ وذهوبِ
تملكهَا الآتي تملكَ سالبِ
وفارقهَا الماضي فراقَ سليبِ
ولا فضلَ فيها للشجاعة والندي
وصبرُ الفتى لولا لقاء شعوبِ
وأوفي حياة الغابريين لصاحبِ
حياة امرىء خانته بعد مشيدِ
وبما أنَّ الموت نهاية محتمة ، يعود الشاعر فيرى أنَّ طول العمر وقصره
بيان^(٢) :

كثيرُ حياةِ المرءِ مثلُ قليلها
يزول وبباقي عمره مثل ذاهبِ

وتلك هي سنة الحياة^(٤) :

على ذا مضى الناس اجتماع وفرقـة
وميـت وموـلود وقـال ووـامـقـ
فيـدعـوـ الىـ اـنـتـهـابـ اللـذـاتـ وـانـ يـقـنـصـ الـأـنـسـانـ ماـ يـسـطـعـ منـ هـذـهـ
الـدـنـيـاـ فـهـيـ وـحـدـهـ ماـ يـمـلـكـ^(٥) :

دعـ النفسـ تـأخذـ وـسـهـاـ قـبـلـ بـيـنـهـاـ
فـمـفـرـقـ جـارـانـ دـارـهـاـ العـمـرـ
ويـرـىـ الموـتـ ضـرـباـ مـنـ قـتـلـ وـاغـتـيـالـ^(٦) :
اـذـاـ مـاـ تـأـمـلـتـ الزـمـانـ وـصـرـفـهـ
تـيقـنـتـ انـ الموـتـ ضـربـ مـنـ القـتـلـ
والـغـدرـ مـنـ صـفـاتـهـ^(٧) :

غـدرـتـ يـاـ مـوـتـ كـمـ أـفـيـتـ مـنـ عـدـدـ
مـنـ أـصـبـتـ وـمـ اـسـكـتـ مـنـ لـجـبـ
وـهـوـ سـارـقـ وـلـصـ أـوـجـدـهـ وـحـتـهـ نـوـامـيـسـ هـذـاـ الـكـوـنـ وـقـوـانـيـنـهـ^(٨) :
وـمـاـ المـوـتـ اـلـاـ سـارـقـ دـقـ شـخـصـهـ
يـصـوـلـ بـلـاـ كـفـ وـيـسـعـىـ بـلـاـ رـجـلـ
وـتـسـرـدـ هـذـهـ الـدـيـنـاـ مـاـ تـهـبـ دـوـمـاـ،ـ وـلـيـتـهـ بـخـلـتـ بـماـ وـهـبـتـ،ـ وـيـدـعـوـ الىـ
الـعـدـمـ مـاـ دـامـ الـفـنـاءـ نـهـاـيـتـهـ،ـ وـبـالـرـغـمـ مـنـ غـدـرـهـاـ وـخـيـانـتـهـاـ تـظـلـ مـعـشـوقـةـ،ـ
دـوـنـ اـنـ تـحـفـظـ عـهـداـ اوـ تـنـمـ وـصـلاـ،ـ وـالـأـنـسـانـ لـاـ يـمـلـ هـذـهـ الـحـيـاـةـ،ـ وـالـخـلـودـ
فـيـهاـ مـحـالـ^(٩) :

ولـذـيـدـ الـحـيـاـةـ أـنـفـسـ فـيـ النـفـسـ وـأـشـهـىـ مـنـ أـنـ يـمـلـ وـأـحـلـ
أـبـدـاـ تـسـرـدـ مـاـ تـهـبـ الدـيـنـاـ فـيـاـ لـيـتـ جـوـدـهـاـ كـانـ بـخـلاـ
وـهـيـ مـعـشـوقـةـ عـلـىـ الغـدرـ لـاـ تـنـمـ وـصـلاـ

ويدعو الانسان ان يُصرُب عن الجنس في حياة نهايتها الموت فتنجو
الأجيال القادمة من المصير المؤلم ببقائها في عالم الغيب ، لا حياة ولا ممات
ولا سعادة ولا شقاء^(١٠) :

وما الدهرُ أهْلٌ أَنْ تُؤْمِلْ عَنْهُ
حِيَاةً وَانْ يَشْتَاقَ فِيهِ إِلَى النَّسْلِ

وغرور الانسان حق وجهل ، ما دام الموت يجثم على صدره ، ويضع
الشاعر أمامنا مصير الاكاسرة الذين كنزوا الكنوز ، واذا بكل ذلك
هباء وعبث ، حواهم قبر وأحال رفاتهم الى تراب تذروه الرياح ، بعد أن
ضاق الفضاء بجيوبهم وجبروتهم فغفلوا عن هذه الدنيا وغدرها ومصيرهم
فيها ، ثم سكتوا بعد أن ملأوا الكون صخبا وضجيجا^(١١) :

أَبْنَى أَبْنَى نَحْنُ أَهْلُ مَنَازِلٍ
أَبْدَا غَرَابَ الْبَيْنِ فِيهَا يَنْعَقُ
نَبَكِي عَلَى الدُّنْيَا وَمَا مِنْ مُعْشِرٍ
جَعَتْهُمُ الدُّنْيَا فَلَمْ يَتَفَرَّقُوا
إِنَّ الْاَكَاسِرَةَ الْجَبَابِرَةَ الْأَلَى
كَنَزُوا الْكَنَزُوا فَمَا بَقَيَ وَمَا بَقَوا
مِنْ كُلِّ مِنْ ضَاقَ الْفَضَاءُ بِجِيشِهِ
حَتَّى ثَوَى فَحَوَاهُ لَهُدَّ ضَيْقُ
خَرَسٌ اذَا نَوَدُوا كَانَ لَمْ يَعْلَمُوا
أَنَّ الْكَلَامَ لَهُمْ حَلَالٌ مَطْلُوقٌ
وَالْمَوْتُ آتٍ وَالنَّفَوسُ نَفَائِسٌ
وَالْمَسْتَغْرِرُ بِمَا لَدِيهِ الْأَحْمَقُ

وفي عالم يزول فيه الجبابرة ، وتتحي آلاف الجموع ، وتبقى فيه الآثار
شاهدية على اصحابها ، وما تثبت ان تندثر في دورات الاخلال والعدم ، لا

تصفوا الحياة الا لجاهل او غافل او ميت حي ، ليس لأبعاد الزمن عنده من ماضٍ
وحاصلٍ وآتٍ معنى ، ارتضى لانسانيته ان تكون سائبة ، فتمنى البقاء وتطلّع
الى الحال وعاش في الحلم والوهم فزاد طمعاً وعماية^(١٢) :

وتصفو الحياة لجاهل او غافلٍ
عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغاليطُ في الحقائق نفسه
ويسموها طلب الحال فتطمئنُ
أين الذي المرمان من بنائه
ما قومه ما يومه ما المشرع
تخلَّف الآثار عن اصحابها
حينما يدركها الفناء فتبقى
وهناك امثلة تدور بين الناس حياة كالموت ، وموت كالحياة^(١٣) :

في الناس امثلة تدور حياتها
كماتها ومماتها كحياتها
فالحياة عملية دفن دائبة يتبدلها البشر فيما بينهم ، لا توقف فيها ، وكان
الاجيال مواكب يشع الواحد منها الآخر ، والدنيا مأتم دائم^(١٤) :
يدفن بعضنا بعضاً وتمشي
اوآخرنا على هام الاولى
وحين يألف الانسان الحياة يجد الموت مرأً شديداً ، وما فائدة الخوف
من الموت الذي يميت معه ايضاً نوازع الخشية والفرغ منه^(١٥) :

إلف هذا الهواء أوقع في الأنف
فس أن الحمام ~~مم~~ المذاقِ
والأسى قبل فرقاة الروح عجز
والأسى لا يكون بعد الفراق

ويستغرق رثاء الانسان من الشاعر ابياتا وقصائد ويرى ان الناس بنو الموتى ، يبزعن من أقوى وشائع ما اقترب بوجودهم ، ويخلون بما لا يملكون ولا بد من ضجعة ابدية ، تنسى ما كان وما يكون ، يتساوى بها الجاهل والعاقل القوي والضعيف والعظيم والحقير ، وتغدو بديهيات هذه الحياة ضربا من فلسفة وحكمة^(١٦) :

لا بد للانسان من ضجعة
ينسى بها ما كان من عجبه
نحن بنو الموتى فما بالنا
تبخل ايدينا بأرواحنا
فهذه الارواح من جوه
لو فكر العاشق في منتهى
میوت راعي الضأن في جهله
وربما زاد على عمره وزاد في الامن على سربه

والامثلة كثيرة ولا نستطيع ان نملأ بها صفحات وصفحات . وشعراء سابقون لم يفthem ما جال في ذهن المتنبي من خواطر ، منهم : زهير وطرفة وبعض العباسيين ، ولكن المتنبي استطاع ان يقدم افكاره بأطر خاصة ، وبهذا يمكن ان نسميه حكيمًا ، إن أصررنا على الاصطلاح ، وبما ان الشعر فكر واحساس وموهبة ورؤيه ، فلا بد ان يتناول شعراء موضوعات تهم الانسان وجوده ومصيره ، ولا نرى في ذلك عجبًا ، فان ابتعدوا عن انسانيتهم في اشعارهم اثاروا الدهشة . ويحمل الشعراء الناس على التأمل في قضايا هذا الكون ، ويتحفهم الفلسفة بأفكارهم ، ويبدع العلماء تجارب ، وتتضافر جهود البشر للكشف عن المجهول ، فيضرب الانسان في متاهة هذا الكون ، ويتقدم خطوات اخرى في عوالمه اللامتناهية . فهل كان المتنبي حكيمًا في انصاف ابياته ؟ ام انه مفكر ومبدع وفنان في شعره جميعاً ، اضناه حزن العالم ، وكان للموت في مراثيه جانبان ، أولهما يفصح عن أسي حقيقي

لفقيد ترك في نفسه أثراً لا يمحى وحسرة ولوعة، فإليه والى ذلك الحزن ينظم شعراً، كما نجد في رثائه لخولة ولجدته. وحين تفرض الظروف عليه مرائي لمناسبات طارئة، يختتمها عزاء رسمي ومشاركة وجданية لا مفر منها، نراه يهرب من رثاء فرد لا قيمة لموته عنده الى رثاء الانسان، تفصح عن ذلك قصائد: يماك التركي وأم سيف الدولة وأخته الصغرى وغيرها، وحين تعوزه التجربة الخاصة والاحساس الحقيقي، لا يفتقد التجربة العامة الشاملة التي تلف بأبعادها البشرية جعاء.

(١) ينظر للمؤلف: الشعر والزمن، منشورات وزارة الاعلام، بغداد ١٩٧٥، وفيه فصل خاص عن المتنبي و موقفه من الزمن وتأملاته الفكرية، ص ٣٩ وما بعدها.

(٢) - (١٦) الديوان، ج ١، ص ٤٩، ١٥٠ ج ٢، ص ٣٤٢، ١٤٨. ج ٣، ص ٥١.
ج ١، ص ٨٧. ج ٣، ص ٤٨، ١٢٩، ٥٢. ج ٢، ص ٣٣٤، ٢٦٩. ج ١، ص ٢٣٥.
ج ٣، ص ١٨. ج ٢، ص ٣٦٩. ج ١، ص ٢١١.

صفات السيف والنزعه الحربيه في شعر المتنبي

احتفل المتنبي، في شعره وحياته، بالسيف كثيراً، وكانت له مكانة غالبة وسطوة و فعل ، وصفات واجواء . يكاد ينطق ، يحزن ويفرح ، يشجع ويحاف لا نخطيء صليله وبريقه ورهافته . يظهر في القصائد مع الورد والحبية والكأس . يصاحب الشاعر صديقاً وفيأ ، في حله وترحاله ، قبل ان تكون له صولة وجولة في الحروب والغزوات ، ويحيله رمزاً للرفرفة ، بهديه في دروب المجد ، ويحبه ، ويقبله ، ويسمحه بحنان ما حظي به امرأة وكأنه ولد مع الشاعر وخبر الحياة بتجاربه ، ولم يفارق جنبه ولم يغادر مضمونه ، استقطب كل تطلعاته ، واصبح بؤرة طموحة الامتناهي ، وهبط في الحلم والواقع على رقاب الاعداء والمناوئين . ولا أظن ان السيف نال من شاعر عربي او غير عربي ما بوأه المتنبي من منزلة ، فقد تردد مئات المرات في قصائده ، وصارت له طقوس واحوال خاصة . وما زاد السيف مكانة في شعره انه لقب لأكبر مدحويه شأنأ ، وأكثرهم تأثيراً وفاعلية في شعره وحياته ولحارب شجاع ، حفظ له التاريخ مواقف وجولات في عالم البطولة : « وكان قد جمع ما تراكم عليه من عجاج الحرب فصنع منه لبنة وأوصى ان توضع تحت رأسه في قبره »^(١) ، وقامت مقارنة بين سيف الدولة شخصاً والسيف سلاحاً ، وأوغل الشاعر في ذلك ووجد مجالاً يرضي رغبة القتال عنده ونوازع التفوق والقوة ^(٢) :

فلا تعجبنا ان السيف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد
له من كرم الطبع في الحرب منتضى
ومن عادة الاحسان والصفح غامد
ولا تنحصر دولة السيف عند المتنبي الا اذا قمت المقارنة بينه وبين سيف
الدولة^(٢) ، وقد يمترزج الاثنان فلا تكاد تفرق بينهما^(٤) :

همام اذا ما فارق الغمد سيفه
وعايته لم تدر أيمها النصل
وإذا ما سماه تكاد السيف تتسم في أغمامها تيهأ وزهوأ^(٥) :

ذا نحن سميناك خلنا سيفنا
من التيه في أغمامها تتسم
وحين يبتعد السيف عن سميء المدوخ ، يستعيد المكانة السامية عند
الشاعر الذي يعيد سيرة عنترة فيحيل اليه امرأة: « سلي عن سيرتي فرسي
وسيفي »^(٦) ، ويصف حبيرة رائعة الجمال حلّت عنقها بسيف من الصد اذا
هم بالضرب اتقاه الشاعر بدرع من التجدد والصبر^(٧) :

وشادنِ روح من يهواه في يده
سيف الصدد على أعلى مقلده
ما اهتزَّ منه على عضو ليتره
الا اتقاه بترسٍ من تجلده

ويبدأ قصيدة مدحه بأربعة عشر بيتا في وصف سيفه الذي يتمنى ان
تصبح عنه غمداً له^(٨) :

والباقي الذي لو اسطعتُ كانت
مقلتي غمدةً من الاعتزاز

وبعجب بمدوح، فقد السيف المجردة من أغهادها أشد عليه من فقد
أحبيه^(٩) :

وأمرٌ من فقد الأحبة عنده
فقد السيف الفاقدات الأجفنا
ويشه نفسه بالسيف ويطلب من أحد مدوحيه ان يلوه ليجربه
ويصطنعه^(١٠) ، والشاعر يمثل جزءاً يتكامل مع فرسه وسيفه بمزيج لا
انفصام بعده: «وذريني واياه وطري وذابلي، نكن واحدا...»^(١١) ، وتقرّ
دولة الاقلام باندحارها وينتصر السيف^(١٢) :

حتى رجعت وأقلامي قوائلاً لي
المجد للسيف ليس المجد للقلم
فيتمنى ان يتند به العمر لتصبح الحرب أمه والسيف أباه والرمح أخيه
لا يخشى للموت جولة اذا ما تحققت هذه الاماني^(١٣) :

وان عمرت جعلت الحرب والدة
والسمهري أخياً والمشرقي أبياً
فلا نعجب حين نرى تقبيل السيف أول عمل يقوم به بعد أن يخلص
من مصر وكافور ويختار المهامه والقفار وخطر اللحاق به وقتله يطارده في
كل مكان^(١٤) :

وردنا الرهيمة في جوزه وبباقيه اكثراً مما مضى
فلما أخنا ركزنا الرماح فوق مكارمنا والعلى
وثبنا نقبل لاسيافنا ونسحها من دماء العدا
والامثلة كثيرة. فلا تخلو قصيدة من سيف، وحتى في موضع الرثاء،
يتذكر الشاعر ان الناس يعدون ويهيئون الاسلحة المتنوعة فيقاتلم الموت بلا
قتال^(١٥) ، وصفات السيف متعددة، قوله كالبشر آجال، وآباء وأجداد من

المعادن التي بامتراجها يتكون الحديد، وله ايضا حسب ونسب ، ولذبابه طعم ، ينقم حين يرى الاعداء قلة ، ويجوع ويأكل اهام والرقب ، وحين يقطع الرؤوس يصل الى العظام يصبح بالغناه ، ويضاوه نور الشمس ، ويحمد ويشكر اليه التي تحمله ، ويفخر على الرماح ويستمها ويعيرها انها تعطن من بعيد وتدخل السيف مع المانيا في رهان فتسبق وتنتصر ، وقد يسها السم من طول الضرب ... الخ (١٦) .

ولا يعدم الغمد مكانة في شعره ، يبكي على النصل حين يجرده الفارس لأنه يتسربل بالدم ويغمد في الرقب (١٧) :

تبكي على الأنصل الغمود اذا أندزهـا أنهـ يجردهـا
لعلـها أنهاـ تصـير دـماـ وـانـهـ فيـ الرـقـابـ يـغمـدـهاـ

وتقاد الروح العسكرية تطفى ، في حياة المتنبي وشعره ، والنزعـةـ الحـرـبيةـ
تسـودـ ، فالـعـصـرـ عـصـرـ بـطـولـاتـ ، لاـ كـرـامـةـ فـيـهـ لـلـضـعـيفـ ، والـحـرـوبـ
وـالـغـزوـاتـ تـتوـالـيـ يومـاـ بـعـدـ يـومـ ، والـغـلـبةـ لـلـقـويـ (١٨) :

عشـ عـزـيزـاـ وأـنـتـ كـرـيمـ
بـيـنـ طـعنـ القـنـاـ وـخـفـقـ الـبـنـودـ
فـرـؤـوسـ الرـماـحـ أـذـهـبـ لـلـغـيـ
ظـ وأـشـفـىـ لـغـلـ صـدـرـ الـحـقـودـ

ويولد المتنبي ، وقمعة الاونة وصهيل الخيول وغبار الواقع وصليل السيف يصدع الآذان ويملا الآفاق ، والجيوش تتحرك في كل مكان ، ولا مجد الا للمقاتلين ، ومعدات الحرب تقدم للناس اسباب المنعة والجاه والغني والسيطرة والحكم ، ولا قانون يحمي الفرد سوى السيف ، والجبن صفة مرذولة بين الناس ، لا يلقى صاحبها غير الموان والاحتقار ، وتولد مع المتنبي آماله الكبار : العز السامي والقوة والمبروت والسلطة والحكم ، ويدرك ان الشعر وحده لا يهيء له ذلك ، ويتحول الى داعية حرب حقيقي وتأثير

وسجين^(١٩)، ويخوض المعارك مع سيف الدولة، ولا يثبت في احدى الغزوات الا ستة، منهم الامير والشاعر^(٢٠)، وتثير اشعاره حاسة الجند واقدامهم^(٢١)، ويقطع الفيافي والقفار، دون ان يخشى الوحش وقطاع الطرق، ويحمل معه طموحه الى كل مكان، ويأمل ويرقب وينتظر، ويقترب نزوعه الى الحكم بالسيف ويتخذه مناراً لآماله وجواهرأ لنوازعه ويرعاه في شعره، ويملا صوت الحرب عليه حياته، ولا يفارقها حتى في المواقف التي تنحصر فيها طقوس القتال. ولا يخلو أكثر قصائده من سيف ورمح، وتلك الروح العسكرية الآسرة التي صاحبته في أطوار حياته المختلفة، ولم تفارقه ابداً، فهو يتميز بذلك، دونه الشعراء الفرسان، حتى جاء في المثل السائر: «أنه اذا خاض في وصف معركة كان لسانه امضى من نصافها واسمع من ابطالها، وقامت أقواله للسامع مقام افعالها، حتى تظن الفريقين قد تقابلوا والصلاحين قد تواصلا»^(٢٢)، ومتزوج نزعته الحربية بالأوصاف الغزلية: «ومن بدائع أبي الطيب المتنبي استعماله الفاظ الغزل والنسيب في اوصاف الحرب والجند، وهو ايضاً لما لم يسبق اليه وتفرد به فأظهر الحذق»^(٢٣)، فالناظرات تجرح فؤاده بطنuntas واسعة تنفذ من الدرع التي تتكسر دونها الرماح^(٢٤):

مثلت عينك في حشائـ جراحة
فتـ شـ باـها كـلـ سـاـها نـجـلاـه
نـفـذـتـ عـلـيـ السـابـريـ وـرـبـماـ
تـنـدـقـ فـيـهـ الصـعـدةـ السـمـراـءـ

والناس تعشق وتحب ، لكن الشاعر لا يهوى سوى ضرب الاعادي ولا يشفى قلبه الا بجولة فيهم يكثر بعدها القتل والجرح^(٢٥) :

ضـ روـبـ النـاسـ عـشـاقـ ضـ روـبـاـ
فـأـعـذـرـهـمـ أـشـفـهـمـ حـبـيـاـ

وما سكني سوى قتل الاعدادي
 فهل من زورٍ تشفى القلوب
 وكل امرأة معه لها ضرائر ، هن الفتوة والمرؤة والابوة^(٢٦) ، ولا ينسى
 الطعن والقتل حتى في موقف وداع^(٢٧) :
 نودعهم والبَيْنُ فِينَا كَائِنَه
 قَنَا ابْنَ ابِي الْهِيجَاءِ فِي قَلْبِ فِيلِق
 وتقترن القبل بالرمج والطعن^(٢٨) :
 أَعْلَى الْمَالِكِ مَا يَبْنِي عَلَى الْأَسْلِ
 وَالْطَّعْنُ عِنْدَ مُحِبِّيهِنَ كَالْقَبْلِ
 وَحِينَ يَدْعُى إِلَى الْخَمْرِ فِي جَلْسٍ لَهُ لَا يَسْتَجِيبُ وَيَتَحَوَّلُ الرَّمْجُ لِدِيهِ
 نَدِيمًا يَشْرُبُ الدَّمَ وَيُسْقِيَ الْعَزْمَ^(٢٩) :
 إِذَا مَا شَرِبَتِ الْخَمْرَ صَرْفًا مَهْنَأً
 شَرِبَنَا الَّذِي مِنْ مَثْلِهِ شَرِبَ الْكَرْمُ
 أَلَا حَبْذَا قَوْمٌ نَدَامَاهُمُ الْقَنَا
 يَسْقُونَهَا رِيَا وَسَاقِيهِمُ الْعَزْمُ
 فَاقْحَامَ جَيْشَهُ فِي جَيْشِ وَمَعَاطِهِ الصَّفَائِحِ وَالْعَوَالِيَ الَّذِي عَنْهُ مِنْ طَرْبٍ
 وَخَرْ^(٣٠) .
 الَّذِي مِنْ الْمَدَامُ الْخَنْدَرِيُّسِ وَاحْلَى مِنْ مَعَاطِهِ الْكَوْسِ
 مَعَاطِهِ الصَّفَائِحِ وَالْعَوَالِيَ وَاقْحَامَيِ خَيْسًا فِي خَيْسِ
 وَيَحْثَهُ رَفَاقُهُ عَلَى الشَّرِبِ فَيَأْبِي وَيَبْذَلُونَ وَلَا يَقْبَلُ وَتَقْوَمُ حَالَاتُ الْغَنَاءِ
 وَالْطَّرْبُ ، وَتَبْدِعُ الْمَغْنِيَاتِ وَيَنْسِي الْإِنْسَانُ هَمُومَهُ فَلَا يَأْنِسُ الشَّاعِرُ إِلَّا
 بِصَلْلِ السَّيْفِ^(٣١) .
 لِأَحْبَبِي إِنْ يَمْلَأُوا بِالصَّافِيَاتِ الْأَكْوَبِ

وعليهم ان يبذلوا وعلى ان لا اشربوا
حتى تكون الباترات المسممات فأطربا
ولكنه يدرك حيناً وفي أوقات محدودة ان هناك ما يفوق السيف لطفاً
ورووعة (٢٢) :

وكان اطيبَ من سيفي مضاجعة
اشباءُ رونقِه الغيدُ والأماليدُ

وبما ان الكرم والشجاعة من صفات العصر فلا يستطيع شاعر ان يغفل
عنها في معرض مدحه، ولا سيما اذا كان المدوح فارساً شجاعاً، وقد جمع
المتنبي في قصائد بين الصفتين جمعاً تتضمن فيه براعته الشعرية ونزعته
الحربية، فللاشعار في قلب المدوح جولة واغارة على عطاياه فكأن كل
بيت يمثل جيشاً يسي ما يشاء من امواله (٢٣) :

في كل يوم للقوافي جولة
في قلبه ولأذنه اصغاء
واغارة فيها احتواه كأنما
في كل بيت فيلق شهباء

ويينفي عن النجوم الخلود، فلو حاربها المدوح لناحت فيها
الثواكل (٢٤)، وغبار الحروب خيامه (٢٥)، والحظيرة الظبا والعوالى (٢٦)، ويرى
ان بساتين المدوح هي الجياد، ولا ندرى اية صلة غريبة ربطت في ذهنه
بينها (٢٧) :

وبساتينك الجياد وما تحملُ من سهرية سمراء
ويبدع المتنبي صوراً شعرية حربية متكاملة قد تفوق في دقتها وبراعتها
ما يحدث فعلاً في ساحات الوغى، فلديه خيال حربى لا تتحده وقائع حقيقية
تعرفها ميادين الحروب والبطولات (٢٨) :

مربعي خيلهم بالبیض متذلی
هـامـ الکـهـاـ عـلـیـ أـرـمـاـحـهـمـ عـذـبـاـ
انـ المـنـيـةـ لـوـ لـاقـهـمـ وـقـفـتـ
خـرـقـاءـ تـهـمـ الـاـقـدـامـ وـالـهـرـبـاـ
وـيـكـثـرـ مـنـ التـهـدـيدـ وـالـوعـدـ وـلـاـ يـنـجـوـ مـنـ ذـلـكـ حـتـىـ مـلـوـكـ الـعـرـبـ
والـعـجمـ^(٢٩) :

مـيـعـادـ كـلـ رـقـيقـ الشـفـرـتـينـ غـداـ
وـمـنـ عـصـاـ مـنـ مـلـوـكـ الـعـرـبـ وـالـعـجمـ
وـالـأـيـاتـ الـتـيـ تـفـصـحـ عـنـ فـخـرـهـ بـنـفـسـهـ وـشـجـاعـتـهـ وـاـقـدـامـهـ فـيـ الـحـرـوبـ
كـثـيرـةـ ،ـ فـهـوـ أـقـوىـ مـنـ مـلـكـ الـمـوـتـ وـاـشـدـ جـرـيـاـ فـيـ الـظـلـامـ مـنـ خـيـالـ^(٣٠) :
ماـ تـرـىـ النـوـىـ مـنـ الـحـيـةـ الـذـوـ
اـقـ حـرـ الفـلاـ وـبـرـدـ الـظـلـالـ
فـهـوـ أـمـضـىـ فـيـ الرـوـحـ مـنـ مـلـكـ المـوـتـ
تـ أـسـرـىـ فـيـ ظـلـمـةـ مـنـ خـيـالـ
يـضـرـبـ أـعـدـاءـ بـمـنـجـنـيقـ شـعـرـيـ يـحـقـهـمـ بـاـ يـحـمـلـ مـنـ أـيـاتـ هـجـاءـ وـيـهـدـ
أـرـكـانـهـمـ وـيـحـطـمـ اـصـوـلـهـ^(٣١) :

وـلـوـ ضـرـبـتـكـمـ مـنـجـنـيقـيـ وـأـصـلـكـمـ
قـوـيـ هـدـتـكـمـ فـكـيـفـ وـلـاـ أـصـلـ
وـهـوـ لـاـ يـجـدـ لـنـفـسـهـ كـرـامـةـ دـوـنـ مـغـامـرـةـ وـاـقـدـامـ^(٣٢) :
انـ لـمـ أـذـرـكـ عـلـىـ الـأـرـمـاحـ سـائـلـةـ
فـلـاـ دـعـيـتـ اـبـنـ اـمـ الـمـجـدـ وـالـكـرـمـ
وـلـاـ عـجـبـ اـنـ يـجـيدـ الشـاعـرـ وـصـفـ الـمـارـكـ وـالـحـرـوبـ ،ـ وـيـضـفـيـ عـلـيـهـاـ
شـيـئـاـ مـنـ ذـاـنـهـ ،ـ وـيـتـرـجـ بـهـاـ ،ـ وـيـتـفـوقـ عـلـىـ الـوـاقـعـ فـيـ تـأـطـيـرـهـاـ^(٣٣) :

يهز الجيش حولك جانبيه
كما انتقضت جناحها العقاب

وقد يعجز المصورون والمراسلون الحربيون عن الاتيان بهذه الدقة واستغراق
الحدث وتقديمه صورة تامة مكثفة مختصرة في بيت أو أبيات^(٤) :

يزور الأعادي في ساء عجاجة
أسته في جانبيها الكواكب
فتسفر عنه السيفوف كأنما
مضاربها مما انفللن ضرائب
طلعن شموسًا والغمود مشارق
لهن وهامات الرجال مغارب

ولا تغادره روحه العسكرية ونزعته الحربية وهو يصف ما يراه من
عجبات الطبيعة، فحين يصل الى بحيرة طبرية، لا تنسيه مناظرها الخلابة
ساحات الوعى، وتستغرقه اجواء الطعن والقتال فيرى الموج تزبد وتهدر
كالفحول، ولكن ليس بها شهوة للحرب ، اما الطير ، وهي ترفرف على الماء
وتضرب بأجنحتها فيه ، فتبعد كججاعة من فرسان تضطرب على ظهور
خيل انقطعت اعنتها ، وتنظر له الامواج ، والطيور من فوقها ، كجيشين
متداخلين في هجوم ودفع وقادم وهروب^(٤٥) :

لولاك لم أتركِ البحيرة والـ غورُ دفيءٍ ومائها شيمُ
والموْجُ مثلُ الفحولِ مزبدةٌ تهدُر فيها وما بها قطْمُ
والطيرُ فوقِ الْجَابِ تحسها فرسانَ بلقِ تخونها اللجمُ
كأنها والرياحُ تضرِّها جيشاً وغَيْ هازمٌ ومنهزمٌ

وهكذا تملأ ابواق الحرب مسالك ذهن المتنبي ، في أي مجال كان ،
ولكنه يتحول مرة ، في شعره ، الى داعية للسلم ، ويرى ان الحرب ضرورة
لدفع الهوان ، ولو لاه لانتفت الحاجة اليها ، وان روح القتال تولد مع

الانسان الذي يسرع كلما أنبت الدهر قناة فيركب فوقها الرماح ويوجهها الى أخيه الانسان وهذه الحياة بما تردد وتعطي أصغر من أن نتعادى ونتفاني فيها ، والاعمار كالحلم ، سرعان ما تنقضي ، والدنيا فانية لا تستحق قتلا وخصوصة (٤٦) :

كلمـج أـنـبـتـ الزـمـانـ قـنـاءـ
رـكـبـ المـرـءـ فيـ القـنـاءـ سـنـانـاـ
وـمـرـادـ النـفـوسـ أـصـفـرـ مـنـ آـنـ
نـتـعـادـيـ فـيـهـ وـأـنـ نـتـفـانـيـ
غـيـرـ آـنـ الـفـتـيـ يـلـاقـيـ الـنـسـابـاـ
كـالـخـاتـ وـلـاـ يـلـاقـيـ الـهـوـانـاـ

وهو حين يسير في شعب بوان ، تأخذ مناظره الطبيعية عليه مسارب تفكيره ، ويود ان يستقر فيه ، ولا يبرحه ، يعجب بالندى يصيب الاشجار كالجحان ويبدو كاللؤلؤ المنتشر ، والاغصان الرائعة تحجب ضوء الشمس الا قليلا من نور يفلت من بين العرائش ، والامواه والثمار ملأ المكان ، ولكن النزعة الحربية تستيقظ في نفسه بالرغم من ذلك فيريد ان يخرج من ذلك الجو الرائع الى الطعن والقتال فيعرض عليه حصانه (٤٧) :

يـقـولـ بـشـعـبـ بـبـوـانـ حـصـانـيـ
أـعـنـ هـذـاـ يـسـارـ الـطـعـانـ
أـبـوـكـمـ آـدـمـ سـنـنـ الـمـعـاصـيـ
وـعـلـمـكـمـ مـفـارـقـةـ الـجـنـانـ

ولكنه كمدوحه يمل اليوم الذي لا طعن فيه ولا دماء (٤٨) :
مـلـلتـ مـقـامـ يـسـوـمـ لـيـسـ فـيـهـ
طـعـانـ صـادـقـ وـدـمـ صـبـبـ

- (١) عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب بعد الف عام، ط٢، القاهرة ١٩٥٦، ص٨٣.
- (٢) - (١٥) الديوان، ج١، ص٢٧٢. ج٣، ص٨٢، ١٨٦، ٣٦١. ج١، ص٢٩٧. ج٢، ص٨٠، ١٧٥. ج٤، ص٢٠٠. ج٢، ص٢٩. ج٣، ص١٦٢. ج٤، ص٨. ج١، ص١٥٩، ١٢٠. ج٣، ص٤١. ج١، ص١٢٠.
- (٦) الديوان، ج١، ص١٠، ٤٦. ج٢، ص٢٩٣، ٣٤٧. ج٣، ص٥٠. ج٢٨٠، ص٣٦٠.
- (٧) ، (١٨) الديوان، ج١، ص٣٢١، ٣٠٨.
- (٩) مع المتنبي ٨٩. الدولة الحمدانية ٢٧٦.
- (١٠) الصبح المتنبي ٧٨.
- (٢١) الديوان ٤ - ١٥٦. وينظر: مع المتنبي ٢٢٥.
- (٢٢) الصبح المتنبي ٤٣١.
- (٢٤) - (٤٨) الديوان، ج١، ص١٤، ١٣٧، ١٣٧. ج٢، ص٢٢٧. ج٣، ص٣٠٨. ج٤، ص٣٤.
- ج٤، ص٤٦. ج٢، ص١٩١. ج١، ص١٠٦. ج٢، ص٤٠. ج١، ص٢١.
- ج٣، ص١١٩. ج١، ص٥٤. ج٢، ص١٩٨. ج١، ص٣٣، ١١٩. ج٤، ص٢٤.
- ص١٩٣. ج٢، ص٢٦٢. ج٣، ص٤٣. ج٤، ص١٠٧، ٧٦، ٧٦. ج١، ص٦٦، ٢٤٠، ٢٥٥. ج١، ص٧٣.

المتنبي وكافور

لم يحدث أن شاعرًا يقصد مدوحًا، يتقرب إليه ويشيد بعكارمه، ليحصل منه على ولادة ويشاركه في الحكم، ولا تتحقق آماله، فيهجوه ويصمه بالعار، ولا يعرف الناس والتاريخ ذلك المدوح إلا من خلال قصائد الهجاء، لانه لم ينخدع ولم يهوي للشاعر ما اراد، وما كان كافور ساذجاً، وقد ارتقى إلى الحكم من أدنى درجات العبودية بداعف من طموح يدرك أبعاده ومراميه عند المتنبي وغيره، «وكانت سيرته من اغرب السير»^(١)، قدم مصر قنا مجنوباً مع عبيد، من التوبة أو السودان أو الحبشة^(٢)، ليتاجر في أسواقها وعمره ما بين العاشرة والرابعة عشرة، فاشترأه تاجر زيت: «حل نير العصرة على كاهليه، وحل الاولاني على عاتقيه، وجر العجلات بيديه، وافتشر الارض، وترغ في الزيت، ونقى الكثير من العنت الذي يصاحب حرقه كهذه وتعرض لويل كثير...»^(٣)، واشتراه فيما بعد محمود بن وهب بن عباس الكاتب، وحل يوماً هدية من مولاه إلى ابن طفج، صاحب مصر، فأعجب بقوته وخلقه وضممه إلى حرسه الخاص، «وكان كافور خيراً بالسياسة فطناً، ذكياً، جيد العقل، داهية»^(٤)، فأصبح بجزمه وتدبره قائد عسكر، حارب ابن رائق وسيف الدولة في الشام. وعندما توفي سيده أخذ البيعة لابنه أنوجور، وظن سيف الدولة أن موت ابن طفج يمكنه من دمشق فاستولى عليها وتقدم إلى الرملة ولكن

كافوراً سار اليه فهزمه وأخرجه من دمشق ومن حلب، ثم اصطلاحاً^(٥)، وكان يدبر في الخفاء ،منذ ان ادرك واقعه والظلم الاجتماعي الذي حاق به ان يتتفوق على أسياده ويحكمهم : « فاستمال العبيد وأفسدهم على ساداتهم »^(٦) على نحو تاريخي مثير ، « وصار كل عبد بصر يرى أنه خير من سيده »^(٧) وانفرد بالسلطة : « وخطب له على منابر مصر والشام والجaz وبعض الشغور الرومية حتى توفي سنة ٣٥٦ هـ وعمره خمس وستون سنة بعد ان حكم مصر وما يتبعها اثنين وعشرين سنة... وكان قوياً، شجاعاً، حازماً، استطاع ان يرضي العباسيين والفاطميين معاً»^(٨) ، واكثر حكام مصر ، قبله ، كانوا من الطغاة والمستبدین ولكنه : « غير هؤلاء جميعاً رفقاً بالناس... يوزع عطاياه بين عالم وزاهد وفقير ومحاج... ولم يتعال ويتكبر ، ولم يعاقب من يتحدون عنه بسوء»^(٩) ، « وما يدعوا الى شيء من العجب ان سببويه المصري كان يعلن سخطه على كافور غير هباب... ولكنه لم يتخذ اي اجراء ايجابي لعقابه أو القضاء عليه او الانتقام منه»^(١٠) ، لانه متواضع كريم ، حتى مع أعدائه. لديه أموال خاصة بالقراء والمستورين والمحاجين تبلغ نصف مليون دينار سنوياً ، وموظفو يوزعونها عليهم باشرافه ، وحين يقومون بواجباتهم يقول : الحمد لله الذي جعلني سبباً لا يصل الراحة الى عياله ، وحدّ من سلطة القضاء في عهده وجلس ينظر في المظالم ، ولم يصادر أموال الآخرين ، كما فعل كثير من الحكام ، وكان متدينًا ، يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ، ويقول ، اللهم لا تسلط علي مخلقاً^(١١).

ويقرن تاریخ کافور بالشعر ، حين ينفع الحساد في ابعاد المتنبي عن حلب ، فيحمل آماله العريضة معه ، بعد خذلان وخيبة ، الى دمشق ، فيطلبہ کافور ليوطد به اركان حکمه ، ولا سیما بين الاعراب ، وليصبح کملوک عصره موضع تأله واشادة وتکریم من الشعراء ويرفض المتنبي ويرحل الى الرملة ، ويطلبہ کافور ثانية ، وربما يلوح له بولاية ، فيشد الرحال الى

مصر ، ويدرك ما يفعل ، وأنه في سبيل لقاء العبد : « وقد سأله عن بعض بنى هلال ، فقال : رأيت أمة سوداء تأمر وتنهي »^(١٢) ، ويبعد الشاعر عنه هذه الصورة ، فهو في سبيل غاية معينة ، تهون لديها الوسائل ، وحكم وسلطة ، فقد تتحقق الآمال ويستولي على ارجاء كثيرة من المعمورة ، ويغطي حсадه وصاحبهم في حلب ، ولا ينساهم في قصائده الجديدة التي يمدح بها كافوراً . ولكنه يفخر بنفسه كثيراً ويعرض أحياناً بكافور ، ولم يحدث أيضاً ان شاعراً يود ان يحكم عن طريق المدح ، لينال من مدحه منصباً ، يميل الى السخرية منه في قصائده ، « وكان كافور يعلم يقيناً ان ابا الطيب لا يضر له حباً ولا كرامة ، بل كان يزدريه في نفسه ... وحسبه ما كان يذكر في مدحه له من الحنين الى سيف الدولة وندمه على فراقه »^(١٣) .

يحمل أبو الطيب ، اذن ، آماله العظيمة معه ، ويطرحها بين يدي كافور وينشده واقفاً ، بعد ان أبي ذلك على سيف الدولة : « وفي رجله خنان ، وفي وسطه سيف ومنطقة »^(١٤) :

قالوا هجرتَ اليه الغيثَ قلتُ لهم
إلى غوثِ يديه والشَّابِبِ
إلى الذي تهبُ الدولاتِ راحتَه
ولا يُسْنُ على آثارِ موهوبِ
ويعد كافور بولادة ، تصرحاً وتلميحاً ، ولا يوفي بوعده ، ويدرك بتجاربه الكثيرة ودهائه ووسائل مكنته من الوصول الى الحكم ، مدى طموح الشاعر ، فيكتفي بالاعطية والمال ، دون السلطة والسلاح ، وتتوالى أبيات المتنبي^(١٥) :

وغيِّرَ كثيرٌ ان يزورك راجلٌ
فيرجع ملكاً للعراقين واليا

ويلح ويتعجل ، وتضي اسابيع وشهور ، وابو الطيب ينظم وينشد ،

وكافور يعد ويرجع عن وعده^(١٦) :

أبا المسكِ هل في الكأسِ فضلٌ أثالَه
فإنِي أغنى منْذَ حينَ وشربُ
إذا لم تنسِطْ بِي ضيَعَةً أو لايَّةً
فجودُك يكسُونِي وشغلك يسلُبُ

ويظل المدوح يشرب ، ويقع ابو الطيب يقدر آماله بالشعر^(١٧) :
وأمضى سلاحِ قلد المرةِ نفسَهُ
رجاءً لأبي المسكِ الكريمِ وقصدَه

ويفضي اليه بتعال وكميراء أنه جاء مصر ليختبر صواب رأيه فيه ، ولا
ندرى من كان يخدع صاحبه^(١٨) :

وما شئتُ إلا أن أذل عواذلي
على أن رأيي في هواك صوابُ

ويوغل الشاعر في مدحه ونحس في أبيات له اعجبًا كامناً وروحاً
صادقة وتقديرًا عالياً ، وربما عدَ المدوح زميلاً له في المجد ، استطاع ان
يرقى الى السلطة والحكم ، بالرغم من كونه عبداً مملوكاً ، فكيف بشاعر
العصر ، يعجز عن ذلك؟ فليس عنده ، اذن ، ولصبر وينظر ، ولبطري
محاسنه وصفاته ، وليرمجد جهاده وكفاحه . ويشير المتنبي الى حياة كافور
قبل ان يحكم ، وما قاسى من تجارب مريرة كثيرة ايام العبودية والذل
والهوان والتهيؤ والتربص بالأسيد للانقضاض عليهم ، وجهاده في سبيل
السلطة^(١٩) :

وما كنتَ من ادرك الملك بالمنى
ولكن ب أيام أشنَّ النواصيَا
ويشيد بتدبره الحكم في بلاد واسعة تنطوي تحت نفوذه ، فلا تشرق

عليها شمس الا ولها منه اذن بالغروب ، ويصف كرمه اللامتناهي ، يلي ما
يطلب منه برضى تام وشوق شديد^(٢٠) :

يدبر الملك من مصر الى عدن
الى العراق فأرض الروم فالنوب
اذا أتها الرياح النكب من بلد
فما تهب بها الا بتربى
ولا تجاوزها شمس اذا شرقت
الا ومنه لها اذن بتغريب
كان كل سؤال في مسامعه
قيص يوسف في أجنان يعقوب
اذا غزته أعاديه بمسألة
فقد غزته بجيشه غير مغلوب

ويستمر الشاعر^(٢١) :

يا رجاء العيون في كل ارض
لم يكن غير ان اراك رجائى
وتكثر الاماديع ولا تتحقق الآمال ، ويدرك المتنى اي وهدة وقع فيها
ويحاول ان يخلص من ورطته ، ويعرف كافور خطورة ما يتحقق به اذا هرب
ابو الطيب واذاع فيه اهاجيه ، فيفترض عليه ما يشبه الاقامة الاجارية ،
ويستمر الشاعر في النظم ويبدا بالتعريض والسخرية من كافور بأبيات
تحتمل في تأويلها الشيء ونقضه ، بعد أن احسن بعث وعوده ، فهل
صدق ان الشاعر كان جادا في هذين البيتين ؟ وأي معنى هذا الذي يؤدي
بان للمدح ما يسرح بين الارض والسماء ، وانه اعلى من ان يهنا بمكان
في هذا العالم^(٢٢) :

أنت أعلى محلّةً أن تهنا بمكانٍ في الأرض أو في السماء

ولك الناسُ والبلادُ وما يسرُ حُ بينَ الغراءِ والخضاءِ
ألا نجد هنا اشاره الى ماضيه في العبودية (٢٢) :

ترعرع الملكُ الاستاذُ مكتهلاً
قبل اكمالِ اديباً قبل تأديبِ

ألا يحوله ببساطة الى مربيه ومرضع في هذا البيت (٢٤) :

وأنت الذي ربيتَ ذا الملكَ مرضعاً
وليس لـه امْ هنـاك ولا أبْ

والشاعر خير من وصف الحروب والمعارك وضروب الاقدام والجرأة،
فأي نوع من الشجاعة يتضمنه قوله (٢٥) :

اذا ضربت بالسيفِ في الحربِ كفَهُ
تبينتَ ان السيفَ بالكفِ يضربُ

وفي بيت اخر يقول ان كافوراً يتقدم في الغزوات ويترك وراءه الرماة
والمقاتلين (٢٦) :

وأوسعَ ما تلقاهُ صدراً وخلفهُ
رماءً وطعنَ والأمسامُ ضرابُ

وهذه شتيمة واضحة يتحول فيها أحسن ما يشنى عليه عاراً (٢٧) :

تجاوزَ قدرَ المدحِ حتى كأنه
بأحسنِ ما يشنى عليه يُعابُ

وكيف يرضى ان يكون معد بن عدنان والعرب جميعا فداء لكافور،
والمنتبي يعتز بعروبه كثيراً (٢٨) :

وأيَّ قبيلٍ يستحقَكَ قدره
معدُّ بنُ عدنانٍ فدادك ويعربُ

وَمَا طَرِي لِمَا رَأَيْتُك بِدُعَةٍ
لَقَدْ كُنْتُ أَرْجُو أَنْ ارَّاكْ فَأَطْرُبْ

واشار الشراح الى ما يتضمنه البيت الثاني من هجاء وسخرية ، وقال ابو الفتح بن جني : لما قرأت البيت على اي الطيب قلت : لم تزد على ان جعلته ابا زنة (لقب القرد) فضحك ابو الطيب ^(٢٩) ، ويستمر الشاعر ^(٣٠) :

وَمِنْ قَوْلِ سَامِ لَوْ رَآكْ بَنْسَلَه
فَدَى ابْنَ اخِي نَسِيلِي وَنَفْسِي وَمَالِيَا

وببراعة لغوية شعرية يجري مقايسة بينه وبين الذباب ^(٣١) :

جَرِيَ الْخَلْفُ الْأَفِيكَ إِنْكَ وَاحِدَّ
وَأَنْكَ لِيَثُ الْمَلِكُ ذَئَابُ
وَانْكَ اَنْ قَوِيْسَتْ صَحَّفَ قَارَىءَ
ذَئَابًاً وَلَمْ يَخْطُئِ فَقَالَ ذَبَابُ
وَانْ مَدِيْحَ النَّاسِ حَقُّ وَبَاطِلُ
وَمَدْحُوكُ حَقٌّ لَيْسَ فِيهِ كَذَابُ

والشاعر يضحك منه ويسخر وينتاظ الجد بالهزل وتنحصر الغاية وتضيع الولاية فيقول ^(٣٢) :

وَلَوْ كُنْتُ أَدْرِي كَمْ حِيَا تِي قَسْمَهَا
وَصِيرَتْ ثَلِيْهَا اَنْظَارَكَ فَسَاعِلَمِ

ويشير في مدحه الى ضرب من هذيان الاعداء المذمومين ، وكأنه يريد ان يؤكده أقوالاً واحداثاً معينة ، ولا يرى طه حسين في ذلك تعريضاً بكافور : « فالبيت مدح خالص لا غبار عليه ولا ليس فيه » ^(٣٣) :

عَدُوكَ مَذْمُومٌ بِكُلِّ لِسانِ
وَلَوْ كَانَ مِنْ اَعْدَائِكَ الْقَمَرَانِ

والله سر في علاك واغا
 كلام العدا ضرب من المذيان
 أتلتمس الاعداء بعد الذي رأت
 قيام دليل او وضوح بيان
 وأي دليل واي بيان؟ أ يريد الشاعر ان يشير الى المعجزة او المهزلة
 الكبرى ان يكون كافور حاكما^(٢٤) :

قضى الله يا كافورُ أنك اول
وليس بقاضٍ ان يُرِي لَك ثانٍ
 فهو حين يتطلع الى ضيعة او ولاية يجد في تربع كافور على دست
انك اعجمية النهان، وعما هنا العجز فأندادكم (٣٥).

وَمَا زَالَ أَهْلُ الْأَرْضِ يَشْتَهِيْنَ لِي
إِلَيْكَ فَلَمَّا حَتَّىٰ لَاهَ فَرَدَهُ

(۲۶)

أبا كل طيب لا أبا المسك وحده
 وكل سحاب لا أخص الغواديا
 يدل بمعنى واحد كل فاخر
 وقد جمع الرحمن فيك المعاني

ويصف الشاعر اتباع كافور والقائمين على خدمته والداخلين في طاعته
بانهم مغلوبون على امرهم، ذلوا تحت سلطانه، وكأنه كارثة طبيعية ماحقة
لا بد منها أحد (٣٧) :

أجل الناسُ عن طريقِ إبي المساكِ
لَكَ وذلتْ لِهِ رقابُ العبادِ
كيف لا يتركُ الطريقَ لسيلِ
ضيقٍ عن أئمَّةِ كلِّ وادٍ
ولم يكنْ من دخلَ في طاعته سيداً، وليس له أخلاقُ السادةِ وشجاعةُ

الفرسان وطبائع الأسد ، وكأن الشاعر يهجو نفسه (٣٨) :
 فبها و مثله سدت يا كافو رُ واقتلتَ كلَّ صعبِ القياد
 وأطاع الذي أطاعك والطا عة لست خلائقَ الأسد
 وعرض بكافور في القصيدة التي مدح بها منافسه القديم في الحكم أبا
 شجاع فاتكا (٣٩) :

وأجزِّ الاميرَ الذي نعاه فاجئته
 بغيرِ قولِ ونعمى الناس اقوال
 وأمثلة السخرية كثيرة في قصائد المدح التي وجهها الى كافور ، ولا
 يغفل عن ذكر سيف الدولة ليغطيه ، ولا يكتفي الشاعر بهذا وذاك فيأتي
 على ذكر لونه الاسود (٤٠) :

يفضحُ الشمسَ كلما ذرتِ الشم سِ بشمسيِ منيرةً سوداءً
 ان في ثوبك الذي المجدُ فيه لضياءً يزري بكل ضياءٍ
 انا الجلدُ ملبسٌ وابيضاضُ الـ نفسِ خيرٌ من ابيضاض القباء
 ويطيل المتنبي التفكير والتأمل في لون كافور ويخرج بانه ، في سواده ،
 انسان عين الزمان (٤١) :

قواصدُ كافورِ تواركُ غيرِ
 ومن قصد البحرَ استقلَّ السوقـا
 فجاءت بما انسانَ عينِ زمانـي
 وخلت بياضاً خلفها و ماقـيا

وفي قصيدة مدح لكافور أخيرة يذكر لونه الاسود مرات عده (٤٢) ،
 « وكان المتنبي يعلم ان ذكر السواد على مسامع كافور أمرٌ من الموت ، فاذا
 ذكر لونه بعد ذلك فقد أساء الى نفسه وعرضها للقتل والحرمان ، وكان
 من احسان الصنعة واجمال الطلب الا يذكر لونه ، وله عنه مندوحة ، ولكن
 الرجل كان سيء الرأي ، وسوء رأيه أخرجه من حضرة سيف الدولة ،

وشدة تعرضه لعداوة الناس ، وقد ذكر سواد كافور في عدة مواضع ،
وكان اللائق الا يذكره...»^(٤٣) ، وترد مطالع له وأبيات لا تنالءم
وطموح الشاعر الى تحقيق آماله بالمدح^(٤٤) :

كفى بك داء ان ترى الموت شانيا
وحسبُ المنيا ان يكنَّ أمانيا
تمنيته ما تمنيتَ ان ترى
صديقًا فاعياً او عدواً مداعيا
وللنفسِ اخلاقٌ تتدللُ على الفتى
أكان سخاءً ما أتى أم تساخبا
وترد أبيات اخرى في مدائحه لكافور^(٤٥) :

اما تغلطُ الايامُ فيَ بَأْنَ اُرَى
بغضاً تنسائي او حبياً تقربُ
ألا ليت شعري هل أقولُ قصيدةً
فلا أشتكي فيها ولا أتعتبُ

وتفشل مساعي اي الطيب واسعاره وشكواه ، ويدرك كافور مراميه
منذ البداية ويستخدمه مداحاً ، ولا يحقق له رجاء : «أنت في حال الفقر
وسوء الحال وعدم العين سمت نفسك الى النبوة ، فان أصبحت ولاية وصار
لك اتباع فمن يطيقك؟»^(٤٦) ويحكم كافور على آمال الشاعر بالخيبة ، ولا
 يستطيع ابو الطيب ان يغادر مصر علانية^(٤٧) :

أقمتُ بـأرضِ مصرَ فلا ورأسي
تخبُّ بـيَ المطئِيُّ ولا أمامي
قليلٌ عائدي سقِّمْ فؤادي
كثيرٌ حاسدي صعبٌ مرامي
وينتظر الساعة المناسبة للخلاص ، وحين يهرب ويلحق به جند كافور ،

وتسرى حالة من انذار بين القبائل للامساك به وارجاعه الى مصر، وينجو، يبدأ طور جديد من العلاقة الغربية بينه وبين كافور وتمثل في الهجاء بعد المديح الذي يعتذر عنه الشاعر بأنه كان هجو الورى^(٤٨) :

وشعر مدحتُ به الكركدن بين القربيض وبين الرقى
فما كان ذلك مدحًا له ولكنه كان هجوَ الورى
ويلغى في ابياتِ، يحفظها الناس ، تاريخ كافور وأعماله^(٤٩) :

لا تشرِّ العبد الا والعصا معه
ان العيادة لأنجاس مناكيد
ما كنت أحسبني أحياناً الى زمانِ
سيءٍ في فيه كلبٌ وهو محمودٌ
ولا توهمتُ أن الناس قد فقدوا
وان مثل اي البيضاء موجودٌ

ويدعو المتنبي الى التفرقة العنصرية، خلاف ما آمن به في مطلع شبابه من مساواة بين الناس وشاشة للعدالة الاجتماعية، اراد ان يكون السيف واسطة لتحقيقها ، وبالرغم مما لاقاه في حلب من عنت واعراض وذل فهو لم يهجر سيف الدولة وظل وفيأً له ، وكان موضع احتفاء في مصر وعنابة وخشية ، ولكن هجا صاحبها ، بعد مديح ، وحوله ضحية من اكبر ضحايا الشعر عبر القرون ، ولم يكتف بشتمه ولكن حرض على قتلها ايضا^(٥٠) :

ألا فتَّ يورد المندى هامتَه
كها تزول شكوكُ الناسِ والتهَمُ

ولا يحفظ الناس بيتاً واحداً من مديح المتنبي لكافور ، ويبقى الهجاء حياً في اذهانهم ، وتنتهي العلاقة الغربية بين الشاعر والمدوح ، وهذا الفيض من الاحداث المتلاحقة ، واستجداء الشعر للسلطة ، واقتراح تطلعات الشاعر الى الحكم بالخيبة ، وثبتت الشعر على مدى الايام انه اقوى من الحقيقة وله

سطوة في عوالمنا تفوق كل نفوذ وتدبر وسلاح ، ويتأمر التاريخ والشعر على كافور ويسدalan الستار على وقائع حياته ، ما له وما عليه ، ولا يستجيب الله لدعائه حين كان يتهجد ويمرغ وجهه ساجداً ويقول اللهم لا تسلط علي مخلوقاً .

-
- (١) د. سيدة اسماعيل كاشف، مصر في عصر الاخشيديين، ط٢، القاهرة ١٩٧٠، ص ١٣٧.
 - (٢) ابراهيم الاباري، أبو المسك كافور، القاهرة ١٩٦٢، ص ١٣٠. وينظر محمد كمال حلمي، أبو الطيب المتنبي، القاهرة ١٩٢١، ص ٥٨.
 - (٣) أبو المسك ١٣٢. وينظر: مصر في عصر الاخشيديين ١٣٧.
 - (٤) مصر في عصر الاخشيديين. ١٤٣.
 - (٥) ينظر: د. فيصل السامر، الدولة الحمدانية في الموصل وحلب، ج ٢، بغداد ١٩٧٣، ص ٣٦ وما بعدها. عبد الوهاب عزام، ذكرى أبي الطيب، ط ٢، القاهرة ١٩٥٦، ص ١٠٨ وما بعدها. والبرقوقي ص أ - أ.
 - (٦) ديوان أبي الطيب، تحقيق عبد الوهاب عزام، القاهرة ١٩٤٤، ص ٤٣٦.
 - (٧) الصبح المنبي ١١١.
 - (٨) ذكرى أبي الطيب ١٩٠، ١١٠. وينظر: مصر في عصر الاخشيديين ١٠٧.
 - (٩) أبو المسك ١٤٩. ومصر في عصر الاخشيديين ١٤٤.
 - (١٠) مصر في عصر الاخشيديين ٣٢٦.
 - (١١) المصدر السابق ١٤٤ - ١٤٧، ٢١٠، ٢٣٩، ٢٤٧.
 - (١٢) الصبح المنبي: ١١٠.
 - (١٣) شاكر ١٤٧.
 - (١٤) الصبح المنبي ١١٢. والديوان ١٧٣ - ١٧٤.
 - (١٥) - (٢١) الديوان، ج ٤، ص ٢٩٠. ج ١، ص ١٨٢. ج ٢، ص ٢٣. ج ١، ص ١٩٩.
 - (٢٢) الديوان ١ - ٢٣. وينظر: عبد القادر المازني، حصاد الهشم، ط ٧، القاهرة ١٩٦١، ص ١٣٥.
 - (٢٣) - (٢٨) الديوان، ج ١، ص ١٧٠، ١٩٤، ١٩٥، ١٨٥، ١٨٢، ١٨٦.

- (٢٩) الصبح المنبي ١١٧ . وينظر : هامش (٢٧) من المتنبي وحاسديه .
- (٣٠) - (٣٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٩٣ . ج ١ ، ص ١٩٩ . ج ٤ ، ص ١٤٢ .
- (٣٣) طه حسين ، مع المتنبي ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ٣١٥ . والديوان ٤ - ٢٤٢ .
- (٣٤) - (٤٢) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٤٦ . ج ٢ ، ص ٢٨٩ . ج ٤ ، ص ٢٨٩ . ج ٢ ، ص ٣٨ ،
- ج ٣ . ج ١ ، ص ٢٧٧ . ج ٤ ، ص ٣٤ . ج ٢ ، ص ٢٨٧ . ج ١ ، ص ١٨٨ .
- (٤٣) عن الوحديد ، ينظر : الصبح المنبي ١١٦ .
- (٤٤) ، (٤٥) الديوان ، ج ٤ ، ص ٢٨١ . ج ١ ، ص ١٧٧ .
- (٤٦) الصبح المنبي ١١٢ .
- (٤٧) الديوان ٤ - ١٤٥ .
- (٤٨) الديوان ١ - ٤٣ . وينظر : المازني ١٣٧ .
- (٤٩) ، (٥٠) الديوان ، ج ٢ ، ص ٤٣ . ج ٤ ، ص ١٥١ .

الشاعر والمرأة

يكثر شعراء من النظم في الغزل ، وان لم يكونوا متيمين ، يسعدهم ان يحظوا من المرأة بمكانة في اشعارهم ، وان لم تكن لهم في الحب جولات ، ويحاولون ان يصطنعوا الاجواء العاطفية الحالمه وينظروا كالمحبين شوقاً ولوعدة ، وان شغلو بحسب أنفسهم ، وان يتبدعوا حبيباً متوهماً ، ان افتقدوه في واقع حياتهم . ولكن المتنبي ينفرد ، في هذا ايضاً موقف خاص ، وكأنه يهرب من الحب ولا يريد ان يكشف عن نفسه في اشعاره ، ويفضي البنا بأنه بعيد عن المرأة وعوالمها وانه يرى في حبها والتقارب منها ضعفاً لا يليق بالرجال ، ويقتضي بعض شرائحه ونقاده وقرائه بذلك ، ويختارون في التمييز بين الغزل الحقيقي والمزيف حين تختلط المحاكاة بالاشعار الصادقة في المطالع الغزلية التقليدية ، ويرون انه كان يتغزل بالمجده ويعشق الرفعة ، ولم يترك طموحه مكاناً للمرأة في شعره وحياته وانه مغامر فارس لا يمكن ان يخضع لأنشي ، و«ان خشونته صرفته عن الاقبال الحقيقي على المرأة»^(١) ، ولكن هذه الصورة القائمة لعلاقة الشاعر بها ، تزول بتعمقنا في شعره الغزلي ، بالرغم مما وضعيه امامنا من صعوبات للوصول الى الحقيقة ، فهو لم يذكر المرأة التي تزوجها في شعره ، ولم يورد اسم حبيبة او عشيقة ، وان كان من اسماء الغزل الشائعة ، الا نادراً ، ومرة أصر النحويون أنه أورد اسم امرأة في بيت له^(٢) :

يا وجهة داهية التي لولاك ما
أكل الضنى جسدي ورضي الاعظى

لأن داهية هنا غير منصرفة، واختلف التحويون في ذلك أيضاً وتناسوا
ان للشاعر صرف ما لا ينصرف ومنع الصرف احياناً لما ينصرف.

فهل كان المتنبي يحب أو يستطيع ان يحب؟ ان تميزه الشديد وتعاليه
وطموحه وتفكيره الطويل فيما يود ان يصل اليه من رفعة، قد لا ينحه
هذا الشعور الرائع. ولكن انفراد الانسان بشخصية متميزة لا يعني عدم
القدرة على الحب دائمآ، والتفكير في المعلى قد يضفي الشاعر، ولا بد من
ساعات يعود فيها الى انسانيته فتريق دمه كل ذات خار يلتقيها^(٢)، او ان
تكون امرأة ما بؤرة طموحه فيحدثها في اشعاره عن اجاده. ولا شك في
أن شاعرنا قد مر بأوقات اجتاحه فيها شعور غامر بالحب والحنين الى
المرأة، وهو لا يدعى ما ليس له كآخرين يرتدون مسوح العاشقين تمويهاً:
« وقد يتزينا بالهوى غير أهله»^(٤)، ونجد ان احساسه العميق بالحب يقوى
في شبابه: « وما انا الا عاشق...»^(٥)، ويخفت في كهولته، بما تفرضه
طبيعة الحياة، وانه لم يستطع لعشقه كتماناً بالرغم من عملية تضليل سادت
بعض اشعاره، وبالرغم من حذره الشديد، واقناعنا بأن اللطف مع النساء
والفخر بمكانته عندهن عار^(٦):

لياليَّ عند البيضِ فوداي فتنَّةُ
وَفَخْرٌ وذاك الفخرُ عندي عابُ

ويحس بخجل وحياء من الخلوة بالنساء، ويحتاج على نفسه، ان وقع في هذا
المأزق، « فحبه حب عربي أولي لا يشدّ عن التقاليد ولا يتعداها »^(٧) :

اذا كنت تخشى العارَ في كلِّ خلوةٍ
فلم تتصبّاك الحسانَ الخرائِدُ
ويحاول ان يقنعوا بأن الحب وهم يتثبت به الانسان طريقة الى الجنس

والتمكّن من الوصل ، وان له مناعة شديدة ضد العشق ، وان قلبه لا يمكن ان يصير رمية للغواي ، وان شهواته ومطامحه تنحصر في الحروب والغزوات ، تبريراً وتفسيراً لعزوفه عن النساء الذي يود ان يؤكده في شعره ، وان خير جليس في الزمان ليس امرأة على أية حال^(٨) :

وَمَا الْعُشُقُ إِلَّا غَرَّةٌ وَطَمَاعَةٌ
يُعْرَضُ قَلْبُ نَفْسِه فَتَصَابُ
وَغَيْرُ فَوَادِي لِلْغَوَانِي رَمِيَّةٌ
وَغَيْرُ بَنَانِي لِلرَّمَاحِ رَكَابُ
تَرَكَنَا لِأَطْرَافِ الْقَنَا كُلَّ شَهْوَةٍ
فَلَيْسَ لَنَا إِلَّا هَنَ لَعَبَ
أَعْزَّ مَكَانٍ فِي الدَّنَا سَرْجُ سَابِحٍ
وَخَيْرُ جَلِيسٍ فِي الْحَيَاةِ كِتَابٌ

ولكن الشاعر العاشق الواقع لا يستطيع ان يحجب عنا الحقيقة بهذه الابيات ، ففي حقب من حياته ، وان كانت قصيرة ومتباude ، اضناه الحب ، وترك اثراً ولم يكشف ذلك في شعره وحاول ان يتجاوزه ، ترفاً وخجلًا وابتعاداً عن العواطف الخاصة ، وترسيخاً ل موقف الجد والبطولة والنضال ، وايماناً بأن الحب يكشف بوضوح ، عقدة الكمال التي اجتاحت الشاعر ، باظهار نقص فيه محظوظ ، تطمئنه وتتممه المرأة ، فهو بدونها لا يستقل بذاته عن هذه الدنيا ، ولا يصطنع عالمًا خاصاً له حدود وأسوار ، فيرفض وجودها احياناً ليوهم نفسه بالكمال التام . الا ان حبه وتطلعه الى النساء ورد ، بالرغم منه ، واصحًا في ثنيا بعض قصائده : « ومن يعشق يلذ له الغرام »^(٩) ، ولا يمكن ان تفسر ابياته الغزلية كلها بمحاكاة الاصول الشعرية السائدة في المديح وافتتاح القصائد ، فشيء من الصدق فيها يعنينا من ذلك ، والصورة التي تفصح عنها هذه الابيات لا يمكن الا ان تقعننا بواقعيتها^(١٠) :

وهذا الغزل الرقيق، لا بد من ان يكون صادقا (١١) :

إِلَامْ طَمَاعِيَّةُ الْعَادِلِ
وَلَا رَأْيٌ فِي الْحَبِ لِلْعَاقِلِ
يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسِيَانُكُمْ
وَيَأْبَى الطَّبَاعُ فِي النَّاقِلِ
وَانِي لِأُعْشَقُ مِنْ عَشْقِكُمْ
نَحْوِي وَكُلُّ امْرَئٍ نَاحِلٌ
وَلَوْ زَلَّتْ ثُمَّ لَمْ أُبَكِّمْ
بَكَيْتُ عَلَى حَبِي الزَّائِلِ
وَهَبَتِ السَّلَوَةُ لِمَنْ لَامِنِي
وَبَتِّ مِنَ الشَّوْقِ فِي شَاغِلٍ
كَأَنَّ الْجَفَوْنَ عَلَى مَقْلِتِي
ثِيَابٌ شَقَقْنَ عَلَى ثَاكِلٍ

ونيران فؤاد المحب تحرق كل تمويه وتضليل ، فالفارق محض ، ومن

أغدت في السير اليوم ، كان يقعدها عن النهوض كفل ، هو من مقاييس
الجبل العصرية السائدة ، لها صفات انشى مثالية ، والعذال لا هم لهم ،
يحاولون ان يرشدوا فئات أصلها الله بالحب والهيم ، والشاعر يسهر شوقاً
لمن يبيت الليل هائلاً ، وتنجده الدموع وشونها . ويصعب الفصل بين الحب
والجنس في الشعر الواقع ، وعند الشاعر وغيره ، ولا تستطيع الا ان تقرن
هذه الاشعار الغزلية بالحقيقة فالشاعر يعني بترسيخ الصورة المعاكسة ، ولا
يكذب في اثبات ما يريد فيه ، وهو المشهود له بأنه لم يكذب قط^(١٢) :

ففي فؤادِ الحب نارُ جوَى
أحرَّ نارَ الجحيم أبْرَدُهَا
بانوا بخربوبةٍ لها كفلٌ
يكاد عندَ القيام يقعدُها
رجلةٌ أسمَرَ مقبلُهَا
سبحنةٌ أبْيَضَ مجددُهَا
يا عاذلَ العاشقين دعْ فئَةٌ
أصلها اللهُ كيف ترشدهَا
بئس الليالي سهرتُ من طري
شوقاً الى من يبيتُ يرقدهَا
أحيتها والدموعُ تنجذبني
شئونها والظلمُ ينجدهَا

وان كان الشعر بريئاً من العشق ، فما الذي جرى له بدار أئلة ، أيام
تجريح ذيوله ؟ وكيف لا يهمه امر النساء ، وهو بهن شهيد مقتول ، ترد فيه
سهام العيون ، وتحلو له القبل ، ويضنه فرع ضرب فيه العنبر بماء الورد ،
وتتأسره طرة شعر ، ويغدو سقاة دماء العناقيد بنفسه وما يملك من طارف
وتلید ، وشهاد الموى عنده الشيب والذل والنحول ؟ أيمكن ان نصف
صاحب هذه الايات بأن بيته وبين النساء جفوة ، وانه كان مقلداً صرفاً

في أبياته الغزلية (١٢) :

ك قتيلٍ كما قلتُ شهيدٍ
وعيون المها ولا كعيونٍ
درَّ درَّ الصبا أيام تجربٍ
عمرَك الله هل رأيتَ بدوراً
راميات بأسمِي ريشُها المدِّ
يترشفن من فمي رشفاتٍ
ذات فرع كأنما ضرب العنٍ
أهلٌ ما ي من الضنى بطلٌ صٍ
كلُّ شيءٍ من الدماء حرامٌ
فاسقينها فدى لعينيك نفسيٍ
شبُّشبُ رأسِي وذلقي ونحوليٍ
ايُّ يومٍ سرتني بوصالٍ

واوضح ان الشاعر صاحب مغامرات وحكايات في عالم الحب (١٤) :

حاولنَ تفديتي وخفنَ مراقباً
فوضعنَ ايديهن فوق ترائبَا

وتنضرَّج وجناتِ المحب بنظراته (١٥) :

ما بالْه لاحظته فحضر جست
وجناته وفؤادي المجروحُ
وله تجارب وجولات، وان ترفعه وعفته لا يمنعان تدهماً ووقوعاً في
الغرام (١٦) :

يردَّ يداً عن ثوبها وهو قادرٌ
ويعصي الهوى في طيفها وهو راقدٌ

ويعد يوهنا بان المرأة لا تأخذ منه غير ساعة يجب بعدها الفلاة الى
غير لقاء ، فيفصح عن خجل ينتابه ويقلقه فيبعد عنا صورة المحب
العاشر (١٧) :

وَلِلْخُودِ مِنْ سَاعَةٍ ثُمَّ يَتَّسَا
فَلَالَّا إِلَى غَيْرِ الْلِقَاءِ تُجَابُ

وان كان ذلك حقاً فain نضع زياراته للاعراب في الليل والعودة مع الفجر، ووصفه للبدويات الحسان اللائي لم تزيغهن المدن ولم تشوه انسانيتهن طقوس الحضارة؟ يعشق المرأة الحقيقة ويموت فيها هياماً ولا يطيق الزائفة التي موتها بتمثيل وتصنّع وكذب ورياء^(١٨) :

كِمْ زُورَةٌ فِي الْأَعْرَابِ خَافِيَّةٌ
ادْهَى وَقَدْ رَقَدُوا مِنْ زُورَةِ الذِّيْبِ
أَزُورُهُمْ وَسَوَادُ الْلَّيْلِ يَشْفَعُ فِي
وَأَنْثَى وَبِيَاضِ الصَّبَحِ يَغْرِي فِي
حَسْنُ الْحُضَارَةِ مَجْلُوبٌ بِتَطْرِيَّةٍ
وَفِي الْبَدَاوِةِ حَسْنٌ غَيْرُ مَجْلُوبٍ
أَفْدِي ظَبَاءَ فَلَاءَ مَا عَرَفْنَ بِهَا
مَضْغَنُ الْكَلَامِ وَلَا صَبَغُ الْمَوَاجِبِ
وَلَا بَرْزَنَ مِنْ الْحَمَامِ مَائِلَةً
أَوْرَاكِهِنْ صَقِيلَاتِ الْعَرَاقِيبِ
وَمَنْ هُوَ كَلِّ مِنْ لَيْسَتِ مُوهَةً
تَرَكَتْ لَوْنَ مُشَبِّي غَيْرَ مُخْضَبٍ
وَكَيْفَ تَمَّ لَهُ، بِلَا تَجَارِبِ ثَرَةٍ عَدِيدَةٍ. وَخَبْرَةٌ وَقَرْسٌ، أَنْ يَقَارِنَ بَيْنَ
الْبَدُولِيَّةِ وَالْحُضْرَيَّةِ، وَإِنْ يَفْضُلْ هَذِهِ وَيَنْبَذْ تَلْكَ (١٦) :
هَامَ الْفَؤَادُ بِأَعْرَابِيَّةٍ سَكَنَتْ
بِيَتَّاً مِنْ الْقَلْبِ لَمْ تَمَدَّ لَهُ طَبَّا

مظلومةٌ القد في تشييهه غصناً
 مظلومةٌ الريق في تشييهه ضرباً
 بيضاء تطمع فيما تحت حلتها
 عزّ ذلك مطلوبٌ اذا طلباً
 مرت بنا بين تربيها فقلت لها
 من أين جانس هذا الشادنُ العربا

فهو لا يترك هذا الشادن يمر دون ان يسمعه غزلاً ويتوقع ردّاً،
 وكأبناء هذا العصر يداعب الحسان دون وجّل، فهذه التي سفكت دمه
 وتقلدته، وجعلت بين حسن الشمس والقمر، سأّلت عن اصفار لونه،
 فأجابتها، ومضت على استحياء تتمايل كالغصن، وتقوم المحرّب دونها
 وتسلب النفوس (٢٠) :

ان التي سفكت دمي بجفونها
 لم تدرِ ان دمي الذي تقلدَ
 قالت وقد رأت أصفراري من به
 وتنهدت فأجبتها المتهداً
 فمضت وقد صبغَ الحياة بياضها
 لوني كما صبغ اللجين العسجدَ
 فرأيت قرن الشمس في قمر الدجى
 متاؤداً غصـنـ بـهـ يـتاـؤـدـ
 عـدوـيـةـ بـدـرـيـةـ من دونـهاـ
 سـلـبـ النـفـوـسـ وـنـارـ حـرـبـ تـوـقـدـ
 ويحدثنا عن شامية طالما خلا بها ، قبلت ناظره وكأنها تقبل فعها لأنها
 تبصر نفسها فيه ، وهي ذات عينين لا ترجي سلامه من دهـتـ فـؤـادـهـ
 بنظراتـهاـ (٢١) :

شامية طالما خلوت بها
تبصر في ناظري محباه
فقبلت ناظري تغاليطني
وانما قبلت به فاه
كل جريح ترجى سلامته
الا فؤادا دهته عيناه
وعن أخرى تقدم إليها بشفاعة لا ترد (٢٢) :
وغضي من الإدلال سكري من الصبا
شفت إليها من شباي برية
ويصبح الفراق عنده اسوأ من الموت (٢٣) :
انني لأجبن من فراق أحبتي
وتحسن نفسي بالحمام فأثج
فالفارق مر شديد تعلق نيرانه بالكبد وقتل الصباة العاشقين (٢٤) :
فواحرست ما أمر الفراق
وأعلق نيرانه بالكبد
وأغرى الصباة بالعاشقين
وأقتلهم للمحب العميم
وأهلج نفسي بغير الخن
بحب ذوات اللمنى والنهر
ونحيا في نفسه ذكريات دائمة وجروح لا تندمل وحب لا يشفي .
ويسعد حين يجدد له الهوى تلك الذكريات وان كان الحنين إليها يمحض
الصخر ، وحين تمنعه أطياف الماضي من النوم يجد لذة في الليليات الطوبية .
ويرى كل شيء في الدنيا حسناً ، ويتحول القلام وهو نبت كريه إلى وزد
حين يرعاه سرب الحسية التي تحيا في إهابه ولا تفارقه ، واليأس منها وعد

ووصل، وكأنها على بعدها حاضرة تمسح مدامعه وتعقب رائحتها في
اثوابه، فهل يمكن أن نعد هذا وذاك ضربا من التقليد والمحاكاة؟ أم أنها
نحس بأن الشاعر عاشق صادق، وأن هذه التي خلقت في نفسه لوعة
وحسرة امرأة حقيقة^(٢٥) :

أَسْرَ بِتَجْدِيدِ الْهُوَى ذَكْرَ مَا مَضِيَّ
وَانْ كَانَ لَا يَقْنِى لَهُ الْحَجَرُ الصَّلَدُ
سَهَادٌ أَتَانَا مِنْكَ فِي الْعَيْنِ عَنْدَنَا
رَقَادُ، وَقَلَامُ رَعَى سَرْبَكَمْ وَرَدُّ
مُثْلَةً حَتَّى كَانَ لَمْ تَفَارَقْيَ
وَحَتَّى كَانَ الْيَأسُ مِنْ وَصْلَكَ الْوَعْدُ
وَحَتَّى تَكَادِي تَسْحِينَ مَسْدَامَعَيَّ
وَيَعْبُقُ فِي ثَوَيَّ مِنْ رِيحَكَ النَّدُّ

وأي نداء تتضمنه هذه الدعوة؟ وأي حنين طاغ^(٢٦) :

زَوَّدِينَا مِنْ حَسْنٍ وَجَهَكَ مَا دَأْ
وَصَلَّينَا نَصْلَكَ فِي هَذِهِ الدَّنَّ بِا فَانَّ الْمَقَامَ فِيهَا قَلِيلٌ
وَيَجْرِي الْحُبُّ بِحْرَى الدَّمِ فِي مَفَاصِلِهِ وَيَشْغُلُهُ عَمَّا سَوَاهُ وَيَذْهَلُهُ عَنِ
الْدُّنْيَا^(٢٧) :

جَرَى حَبَّهَا بِحْرَى دَمِيَ فِي مَفَاصِلِي
فَأَصْبَحَ لِي عَنْ كُلِّ شَغْلٍ بِهَا شَغْلٌ
وَقَدْ تَكَاملَ حَسْنُ الْحَبِيبَةِ فِي نَاظِرِيَّهِ، بَعْقَدَهَا وَزَيَّنَتْهَا وَانتَظَامُ كَلَامِهَا
وَحَلَّوْةُ ثَغَرِهَا^(٢٨) :

فَتَاءٌ تَسَاوِي عَقْدُهَا وَكَلَامُهَا
وَمَبِسْمُهَا الْدَّرَيُّ فِي الْحَسْنِ وَالنَّظَمِ

وما أكثر حبيباته، يصف اخرى تناهى سكون الحسن في حركاتها،
وكانها صورة مجسمة له، وليس هناك عذر لمن يراها ويبقى على قيد
الحياة^(٢٩) :

تناهى سكونُ الحسنِ في حركاتها
فليس لراء وجهها لم يتَّعذرُ

ويحب الجمالُ الحبيبةَ ف يؤثرها بأروع صفاته^(٣٠) :

حبيبٌ كأنَّ الحسنَ كان يحبه
فتأثره أو جار في الحسن قاسمه
وبالرغم من حبه لل Mage١ وللحرب والفروسيَّة فانه يفضل النساء احياناً
على السيف^(٣١) :

وكان أطيبَ من سيفي مضاجعةً
أشباهُ رونقه الغيدُ الأماليدُ
وإذا لم يكن المتنبي عاشقاً متمراً، فمن اين هذه الخبرات وهذه النتائج
التي استخلصها من تجاربه؟ بأن أحلى الهوى ما صاحبه شك في الوصل
فيحيا المحب بين الرجاء والاتقاء، فلا يموت بهجر ونسيان او وصال
مضجر دائم^(٣٢) :

وأحلى الهوى ما شكَّ في الوصل ربَّه
وفي المجر فهو الدهر يرجو ويتقى
ولا عهد للنساء والغدر من شيمتهن، يتطرفن في السخط والرضا
والحدق والحب، ويتيه في فهمهن الرجل الراشد، فهن ألغاز تصعب حلولها،
الا ان الحب بالرغم من ذلك باقٍ يشتند مع الزمن، ولا يسلو الشاعر ولا
تهدا لواعجه^(٣٣) :

اذا غدرت حسناً وفت بعدهما
فمن عهدها ان لا يدوم لها عهدٌ

وان عشقت كانت أشدَّ صباية
وان فركت فاذهب فما فركها قصدُ
وان حقدت لم يبقَ في قلبها رضا
وان رضيت لم يبقَ في قلبها حقدُ
كذلك أخلاقُ النساء وربما
يضلُّ بها المادي ويغفِّلُ بها الرشدُ
ولكن جبًا خامرَ القلبَ في الصبا
يزيد على مر الزمان ويشتَدُ
وبعض خيبات في الحب تدفعه إلى الشكوى من النساء وهجومهن^(٣٤) :

ومن خبر الغرواني فالغرواني
ضياءً في بسواطنَه ظلامُ
ويرى الدنيا خؤوناً كموسم، ولكن موقفه المعادي للمرأة لا يستقيم
ضدًا لما حفل به شعره من مدحها، ويختلط الحدس بالواقع، ونرجح أن
للنساء شأنًا كبيرًا في حياته، حاول أن يتستر عليه وان يكون فيه حذراً.

ويحلو لبعض الكتاب أن يعتقدوا أنَّ المتنبي كان يحب خولة، اخت
سيف الدولة، وان أبيا فراس، ابن عمها، كان يعتقده لذلك، ولا نملك أدلة
مقنعة، وكيف يحبها الشاعر وحولها بنو حدان؟، وكيف التقها وهو يقول
في رثائهما : « قد كان كل حجاب دون رؤيتها »^(٣٥)؟ وهل يمكن ان يقع
المتنبي في حبها فيغامر بمواقعه في حلب التي هيأت له الرفعة ووطأت له
خطوات أخرى في دروب المجد ، يهون لدبها حب امرأة؟

يقول في احدى قصائده لكافور أنه بعد ارتحاله من حلب خلف أناساً
يبكون فراقه ، منهم رجال ونساء ، ولكنه ينفي ان تكون النسوة الائلي
أسفن على فراقه ذوات تأثير فيه وان الذي يهمه حقا هو موقف سيف
الدولة منه^(٣٦) :

رحلتْ فكم باكِ بأجفانِ شادِن
 علىَّ وكم باكِ بأجفانِ ضيفِ
 وما ربُّ القرط المليح مكائِنَةُ
 بأجزَعِ من ربِّ الحسامِ المصمِّمِ
 فلو كان ما يَ من حبيبِ مقنعِ
 عذرتُ ولكن من حبيبِ معمِّمِ

ولا يخص بهذه الآيات امرأة معينة، ولو كان يجب خولة لبان هذا الحب في رثائه لها، ولكننا نجد حزناً صادقاً يشارك به أخاهما، ويطرى أخلاقها الحميدة وعفتها ورقة نوازعها، ولا يمكن ان تخرج من هذين البيتين بحب او عشق، فيها جزء من تعبير شعري تختتمه كتابة قصيدة رثاء يحاول ان يكون فيها متميزة^(٢٧) :

فليت طالعة الشمسين غائبةٌ
 ولیت غائبةٌ الشمسين لم تغبِ
 ولیت عینَ التي آب النهارُ بها
 فداءٌ عینَ التي زالت ولم تؤبِ

وقامت مقارنة بين رثائه لها ورثائه لأختها من قبل : «فلو لم يكن لخولة اثر ايجابي في نفسه او لاختها اثر سلبي لما اقدم على المفاصلة بينها في محفل العزاء ... فهو لم يقف عند الصغرى حيناً رثاها وقفته عند ذكر مناقب اختها»^(٢٨) ، وهذا الرأي ذهب اليه محمود محمد شاكر ، من قبل ، بأن المتنبي قد احب خولة فعلاً ، بمقارنة رثائه لأخت سيف الدولة الصغرى وذكرها في بيتهن ، ورثائه لخولة وذكرها في ٣١ بيته ، ويرى : «ان كلامه هذا ليس كلام شاعر يرثي أخت صديقه واميره وإنما هو كلام قلب محب مفجوع قد تقطعت آماله من الدنيا بموت حبيب قد فجعته المنية فيه»^(٢٩) ، ويجهد مارون عبود في اثنات ذلك الحب ليخالف ما ذهب اليه طه حسين حين

نفاه: «لماذا لا تحب ست الناس اشعر الناس؟ فهو نجي اخيها وناموسه ولسانه وسميره، وماذا ت يريد خولة بعد؟ ليت الحظ اسعد اخت امير السيف بزفافها الى امير القلم، لنبارك لها بهذا العريس الفذ، ولكن ان اراد سيف الدولة فأبوا فراس الحسود وابو العشائر الكنود لا يريدان، وما قدر كان»^(٤٠)، ويدعم رأيه بما يشير لديه شكلاً قوياً ما حدث بين المتنبي وسيف الدولة من قطعية! ويجد في هذا البيت:

ولا ذكرت جيلاً من صنائعها
الا بكيت ولا ود بلا سبب

عاطفة حاول الشاعر اخفاءها فأبانت الا ان تمد اذنيها، ثم يعلل الحنين الدائم الى سيف الدولة بجهة خولة ويراهما وراء محاولة اغتياله في حلب^(٤١).

ولكن المتنبي رشى اخت سيف الدولة الصغرى قبل رثائه خولة بشافي سنوات، وحين كان في حلب، يمارس المديح والرثاء، امراً لا مفر منه، ولا دخل لمشاعره الحقيقة فيه، ونرى ذلك في رثائه لأم سيف الدولة^(٤٢)، الا ان خولة ماتت بعد رحلته الى مصر وعودته الى العراق، وخيبة آماله في السلطة، وابتعاده عن سيف الدولة، ومحاولات كثيرة من رجال وادباء العصر في العراق وغيره الانتقصاص منه، مما اثار شجونه واعاد له ذكرياته في حلب فجاءت قصيده خيراً من الاولى واكثر شاعرية وقوة وتعبيرآ عن ألم دفين، ولأن خولة كانت امرأة ذات مكانة عالية، لها أيدٍ على الشاعر، وهذا لا يعني ان يكون بينهما حب خالد، ولا نستطيع ان نتخذ من طريقة في مرثية معينة قاعدة يجب ان يتبعها في مرثية اخرى بعد سنوات عديدة، اما ما حدث بين الشاعر والامير وبينه وآل حدان فنميل الى تفسيره بشخصيته المتميزة وطموحه وصراحته وجرأته وجفائه وطبقة الحساد الذين أحاطوا به^(٤٣).

- (١) مارون عبود، الرؤوس، ط٣، بيروت ١٩٦٧، ص ١١٩.
- (٢) - (٦) الديوان، ج ٤، ص ٢٨، ٣٦، ٣٦، ج ٣، ص ٣٢٧. ج ١، ص ١٨٩.
- (٧) الرؤوس ٢٧٨ . والديوان ١ - ٢٦٩.
- (٨) - (١١) الديوان، ج ١، ص ١٩٣. ج ٤، ص ٧٥، ٧٥، ج ٣، ص ٢١.
- (٩) الصبح المنبي ٩٤ . والديوان ١ - ٢٩٦.
- (١٠) - (٣٧) الديوان، ج ١، ص ٣١٣ وما بعدها، ١٢٣، ١٢٣، ٢٤٥، ٢٦٨، ١٩٢، ١٦٠، ١١٢، ٢٢٨، ٢٢٨، ج ٤، ص ٢٧٠. ج ٢، ص ٢٦٩. ج ١، ص ٣٤٢. ج ٣، ص ٣. ج ٢، ص ٣٤٢.
- ص ١٤٩، ١٨١، ١٨١. ج ٤، ص ٤٩. ج ٢، ص ٢٤٤. ج ٣، ص ٣٣١. ج ٢، ص ٤٠.
- . ٣٠٥ ج ٤، ص ٧٢. ج ١، ص ٩٢. ج ٤، ص ٩٢. ج ١، ص ١٣٤. ج ١، ص ٩١.
- (٣٨) سهيل عثمان ومنير كنعان، المحصول الفكري للمنبي، بيروت ١٩٧٩، ص ١٩٨.
- (٣٩) شاكر ١٣٠.
- (٤٠) الرؤوس ٢٢٩.
- (٤١) المصدر السابق ٢٢٨ وما بعدها.
- (٤٢) الديوان ٣ - ٨.
- (٤٣) يدرس د. عناد غزوان اسماعيل في المرأة الغزلية في الشعر العربي، بغداد ١٩٧٤ ، ص ٥٨ وما بعدها ، مرثية المنبي في خولة ويرى أنها تتضمن ما يؤكّد حبه لها.

غرابة المتنبي

تكمّن غرابة المتنبي في تميّزه وتمرّده على تقاليد عصره، ونزعة تطغى على افعاله، بادعاء الكمال ورفض النقص والضعف عند البشر ، والبحث عن الانسان الامثل ، وتجسيد القوة والبطش ، وتحقيق الاماني المعقولة وغير المعقولة بالسيف ، واختلاط الحلم بالواقع والظل بالاصل ، ومحاولة خلق العالم من جديد على نحوٍ يهيء له ان يتربع على عروشه جميعاً ، وقلقه وشعوره بأنه مطارد دوماً ، ويحيط به الاعداء والحساد ، وحيرته امام الغاز هذا الكون الذي لم يجده كما يجب ، طوع يديه ورهن اشارته ، وبعداً لكلماته الشعرية ورغباته الشخصية ، والعذاب الفكري الذي عاناه في رحلته الدائمة ، وعلاقاته مع المدوّين ورجال الحكم ، واحساسه باندحار الانسان المعاصر ، وانعكاس ذلك في اراده الانتصار والتغلق الشخصي بما يتجاوز طقوس العظمة والابهة المعهودة بين البشر وبتطبعات لا حدود لها ولا اطار ، للوعي والاختيار فيها نصيب ، غذاها الشاعر برواجسه وأمدها بما يزيدها تعقيداً ومرارة^(١) :

أنا في أمةٍ تدار كها اللهُ غريبٌ كصالح في ثوابٍ
ويقوم صراع في نفسه وتشابك هذه النوازع جميعاً وتصاحبها حيةٌ
مستمرة بما لا يستطيع تحقيقه فيرضى بان يكون من حكام عصره ، دون
ان يدرى بان امجاده الشعرية ، وما فرضت من شهرة وخلود ، تهون

عندما وتصغر وتتضاءل تلك الشهوة الشخصية الخاصة بالسلط والسيادة
وتبدو له الحياة مضنية متعبة فيكثر من الصخب والشكوى، ويهدد
ويتوعد، ولا تدرج آماله في جو طبيعي قائم على ركيزة فلسفية تتحد
بعطاء إنساني ينبع عن موقف ثابت واحد في كل الظروف والأوقات، ولا
تنفعه حكمه، ويتم الانفصال بينه وبين الآخرين، وتصبح حياته هروباً دائماً
متواصلاً ومنفي متنقلًا، ولا يجد لتبديد طاقاته الكامنة المتضاربة غير
الشعر (٢) :

ولكن قلباً بين جنبي ماله
مدى ينتهي بي في مرادِ أحدهُ
وكان بالشاعر يولد طفلاً، لأم هي البشرية، اراد بتّيه ودلال وخباء
ان تلبّي حاجاته وان تتحقق طلباته وطموحه وان تهيء له ما يريد، عدته
موهبة الشعريّة. ولم تفعل، همومها الحقيقية الكثيرة شغلتها عنه، وبقي
يصخب بآماله التي لم تتّجسد واقعاً يبعد عنه الاغتراب، والشكوى من
صروف الدهر التي حاربته ووقف عاجزاً بازاءها، والزمن الخوئون الذي
كاد له ولم يخضب هامته بسيفه (٢).

ويترك بلدته، في مطلع شبابه، ويسيح فيها يعرف من بقاع الأرض
ويشور ليملاً الدنيا عدلاً، ويسجن، وتطول رحلته ولا يهدأ عنفوانه^(٤) :

نَفَرَ رَبَّ لَا مُسْتَعْظِمٌ غَيْرَ نَفْسِهِ
وَلَا قَابِلًاً إِلَّا خَالقَ لَهُ حُكْمًا
وَلَا سَالِكًاً إِلَّا فَؤَادَ عَجَاجِةٍ
وَلَا وَاجِدًاً إِلَّا مَكْرُمَةٍ طَعْمًا
يَقُولُونَ لِي مَا أَنْتَ فِي كُلِّ بَلْدَةٍ
وَمَا تَبْتَغِي، مَا ابْتَغَيْ جَلَّ أَنْ يُسْمَى
كَأَنْ بَنِيهِمْ عَالْمُونَ بِأَئْنَى
جَلُوبُ الْيَهْمِ مِنْ مَعَادِنِهِ الْيَهْمَا

ويوغل في الغربة، ويبكي معها احبابه، ويحن الى أهله، ويهدى
لقاءهم^(٥) :

يصاحبُ في ذا العيد كُلَّ حبيبه
حذائي وابكي من أحب وأندبُ
أحنَّ الى أهلي وأهوى لقاء هم
واين مِن المشتاقِ عنقاءً مغربُ
وكُلَّ امرئٍ يولي الجميلَ محبتَ
وكُلَّ مكانٍ ينبعُ العزَّ طيبُ

ولكن ذلك المكان يجفوه، ويتعلّم اليه ولا يجده، والانسان الذي يولي
الجميل لا تعرفه غير الاحلام، ويعرض الشاعر عن هذا وذاك بأعز مكان
وخير جليس^(٦) :

أعزَّ مكانٍ في الدنا سرجٌ سابعٌ
وخيرُ جليسٍ في الحياةِ كتابٌ

بعد ان وجد نفسه غريباً اينما توجه وسار^(٧) :
معنى الشعب طيباً في المغاني
منزلةِ الربيعِ من الرمانِ
ولكن الفتى العربيَّ فيها
غريبُ الوجهِ واليدِ واللسانِ

فيدعوا الى التوحد الكلي^(٨) :
ذراني والفلة بلا دليلٍ
ووجهـي والهجرـي بلا لشامـ
ويستغنى عن الاوطان ومن فيها ، ولا يحن الى مكان يغادره ، ويصدى
ويرفض ان يبدى الى الماء حاجة^(٩) :

غني عن الاوطان لا يستفزني
 الى بلد سافرت عنه اياب
 واصدى فلا أبدي الى الماء حاجة
 وللشمس فوق العملات لعاب

وتعزله غربته عن الآخرين ، ويقع في وهة الصلف والتعالي والتغافل في
 تشنين الذات وتأكيدها وتضخيمها ، واحتقار الناس ، وكأنه يرتفع
 باختفاضهم ويتصر باندحارهم ، في معادلة غير متوازنة ، ابتدعها الشاعر ولم
 يهأ بها ، ولم تؤد به غربته ان يتبعده عن ذاته أو يحاول نسيانها احياناً او
 يdim التفكير فيما هو خارج عنها تلهية بوسائل لا حصر لها أو جدتتها البشرية
 هروباً من ان تكون الذات محور الاشياء جميعاً فلم يجد الشاعر من ينقذه
 من ذاته أو يبعده عنها قليلاً ، وظل وحيداً نائياً بنفسه عن الجموع ، معتزاً
 بتفرده وعالمه الخاص ^(١٠) :

بم التعلل لا أهل ولا وطن
 ولا ندم ولا كأس ولا سكن
 أريد من زمني ذا أن يبلغني
 ما ليس يبلغه من نفسه الزمن
 مما أضر بأهل العشق أنهما
 هعوا وما عرفوا الدنيا ولا فطنوا
 تفلى عيونهم دمعاً وانفسهم
 في إثر كل فيبح وجهه حسن
 تحملوا حملكم كل ناجية
 وكل بين علي اليوم مؤمن
 ما في هوادجكم من مهجمي ثمن
 ان مت شوقاً ولا فيها لها ثمن

ويحمل معه في اغترابه نقشه الـاـكـبـرـ ، طموحـهـ غـيرـ المـحدـودـ ، وـيـعـتـمـدـ فيـ تـحـقـيقـهـ عـلـىـ الـمـالـ وـالـسـيفـ وـالـشـعـرـ ، وـتـكـدـسـتـ الـأـمـوـالـ ، وـلـمـ تـجـدـ ، وـتـبـدـدـتـ فيـ مـقـتـلـهـ ، وـكـانـ لـلـسـيفـ عـنـدـهـ صـوـلـةـ وـجـوـلـةـ ، وـلـكـنـهـ لـاـ يـفـطـيـ اـبـعـادـ ذـلـكـ الطـمـوـحـ وـحـدـهـ ، وـبـقـيـ الشـعـرـ وـاـوـقـعـهـ فيـ اـغـتـرـابـ جـدـيدـ وـذـلـىـ المـدـوـحـينـ وـخـضـوـعـ لـاـمـزـجـتـهـمـ الـمـخـلـفـةـ : «ـاـنـيـ مـلـقـىـ مـنـ هـؤـلـاءـ الـلـوـكـ ،ـ اـقـصـدـ الـواـحـدـ بـعـدـ الـواـحـدـ ،ـ وـأـمـلـكـهـ شـيـئـاـ يـبـقـىـ بـبـقاءـ النـيـرـينـ ،ـ وـيـعـطـونـيـ عـرـضاـ فـانـيـاـ .ـ وـلـيـ ضـجـرـاتـ وـاـخـتـيـارـاتـ فـيـعـوـقـونـيـ عـنـ مـرـادـيـ فـاحـتـاجـ إـلـىـ مـفـارـقـتـهـ عـلـىـ اـقـبـحـ الـوجـوـهـ»⁽¹¹⁾ .ـ وـلـكـنـ ،ـ أـتـرـكـ الـمـدـيـحـ وـيـتـرـفـعـ عـنـهـ وـبـرـذـلـهـ⁽¹²⁾ :

أـبـاـ سـعـيـدـ جـنـبـ العـتـابـاـ فـرـبـ رـائـيـ خـطـأـ صـوابـاـ
فـانـهـمـ قـدـ أـكـثـرـواـ الـحـجـابـاـ وـاسـتـوـقـفـواـ لـرـدـنـاـ الـبـوـابـاـ
وـانـ حـدـ الصـارـمـ الـقـرـضـابـاـ وـالـذـابـلـاتـ السـمـرـ وـالـعـرـابـاـ
يـرـفـعـ فـيـماـ بـيـنـاـ الـحـجـابـاـ

وـاـذـاـ تـرـكـ الـمـدـيـحـ فـمـنـ سـيـدـرـكـ ،ـ اـذـنـ ،ـ مـنـ أـبـنـاءـ عـصـرـهـ بـاعـجـابـ؟ـ وـانـ
خـلـدـتـهـ الـعـصـورـ الـاـخـرـىـ ،ـ فـمـاـ قـيـمةـ ذـلـكـ اـذـاـ اـفـتـقـدـهـ فـيـ حـيـاتـهـ؟ـ كـيـفـ يـكـنـهـ
الـشـعـرـ بـلـ اـمـادـيـحـ اـنـ يـعـرـفـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـالـآخـرـينـ؟ـ اـنـ يـرـتـادـ قـصـورـ
الـمـلـوـكـ وـالـاـمـرـاءـ ،ـ اـنـ يـخـوـضـ حـرـوـبـاـ وـغـزـوـاتـ ،ـ اـنـ يـفـخـرـ بـنـفـسـهـ وـانـ يـعـرـفـ
الـعـالـمـ؟ـ وـمـنـ سـيـأـتـيـ اـلـيـهـ فـيـ زـاوـيـةـ مـاـ مـنـسـيـةـ ،ـ يـحـفـظـ اـشـعـارـهـ الـذـاتـيـةـ الـخـاصـةـ
وـيـذـيـعـهـ بـيـنـ النـاسـ؟ـ وـاـيـنـ اـجـاهـ وـالـمـالـ وـالـنـفـوذـ؟ـ فـيـمـدـحـ سـيفـ الدـوـلـةـ وـيـشـيرـ
الـخـسـادـ وـالـمـنـاوـئـينـ ،ـ وـيـشـيدـ بـمـحـاـسـنـ كـافـورـ وـيـطـلـبـ لـوـلـاـيـةـ ،ـ وـيـتـرـفـعـ عـنـ مـدـحـ
آـخـرـينـ فـتـؤـلـفـ فـيـ مـساـوـيـهـ وـمـثـالـيـهـ الـحـقـيـقـيـهـ وـالـمـتـوهـمـهـ ،ـ الشـخـصـيـهـ وـالـشـعـرـيـهـ ،ـ
الـكـتـبـ وـالـبـحـوثـ ،ـ وـتـصـدـحـ الـمـجـالـسـ الـاـدـبـيـهـ بـأـخـبـارـهـ وـاـشـعـارـهـ ،ـ وـيـسـهـرـ اـخـلـقـ
وـيـخـتـصـمـونـ؟ـ لـمـ يـكـنـ اـمـامـهـ سـوىـ الـمـدـيـحـ ،ـ وـاـرـتـضـيـ ذـلـكـ وـوـقـعـ فـيـ حـنـةـ
اـغـتـرـابـهـ الـجـدـيدـ :ـ خـضـوـعـهـ لـلـمـمـدـوـحـينـ وـاـهـوـاـيـهـ وـرـغـبـاـتـهـ ،ـ وـاـنـفـصـالـهـ عـنـهـمـ
وـاقـعـاـ وـشـعـراـ وـاـنـسـانـيـهـ .ـ وـمـهـاـ فـخـرـ وـتـمـدـحـ وـاـمـتـنـعـ عـنـ اـلـانـشـادـ وـاقـفـاـ فـانـهـ

يبقى عندهم شاعرًا مداحًا ووسيلةً للشهرة والدعابة والخلود ، لقاء مال وثمن وكان يعرف ذلك ويتعه^(١٣) :

شَرُّ الْبَلَادِ مَكَانٌ لَا صَدِيقَ بِهِ
وَشَرُّ مَا يَكْسِبُ الْإِنْسَانُ مَا يَصْمُ
وَشَرُّ مَا قَنْصَتَهُ رَاحِتِي قَنْصُ
شَهْبُ الْبَزَّاَةِ سَوَاءٌ فِيهِ وَالرَّخْمُ

وحدث الانفصال بينه وبين مدوحه ، فعرض لهم وأهانهم أحياناً وفخر بنفسه ، وبينه وبين واقعه مداحأ ، فوضع لنفسه قيمةً ، ولم يتفق معه العالم ، وبينه وبين الشعراء الذين خبت جذوتهم بأنواره ، وقام الاعداء والمتاؤون يغتالون موهبته ويزعجونه فاحس بمرارة ولوحة غربة انسان لا يستطيع الا ان يكون وحيدا^(١٤) :

أَهَمُّ بِشَيْءٍ وَاللِّيْلَى كَأَنَّهَا
تَطَارِدِي عَنْ كُونِهِ وَاطَّارَدُ
وَحِيدَّ مِنَ الْخَلَانِ فِي كُلِّ بَلَدٍ
إِذَا عَظِمَ الْمَطْلُوبُ قَلَّ الْمَسَاعِدُ

ان ارتباشه في حياته بشخصين ، هما جدته ومدوحه سيف الدولة ، بالرغم من جفائه وخذلانه ، لا يكفي لتكوين علاقات انسانية طبيعية بينه وبين الناس^(١٥) :

وَمَا أَنَا مِنْهُمْ بِالْعِيشِ فِيهِمْ
وَلَكِنْ مَعْدُنُ الْذَّهَبِ الرَّغَامُ

وافقده طموحه وطاقته المائلة وولعه بالمجد ان يروي اغترابه وانفصاله وانفصامه بود حقيقى يمنحه الأهل او يضفي عليه الوطن ظلا من الطمأنينة والسعادة والقناعة^(١٦) :

وهكذا كنتُ في أهلي وفي وطني
 ان النفيسَ غريبٌ حيثما كانا
 ولم يتعبه شيءٌ كتطلعه الى الكمال، وعجزه عنه، وايغال عقدة الالوهية
 في ذاته^(١٧) :

ولم أرَ في عيوب الناس شيئاً
 كنقصِ القادريين على التمام
 فهل يكن ان يزول اغترابه، لو ادعى الشاعر النبوة حقاً، وآمن به
 كثيرون حتى يؤمن هو بنفسه^(١٨) :

ما مقامي بأرضِ خلةَ الا
 كمقامِ المسيح بين اليهودِ
 مفرشي صهوةُ الحصانِ ولكن
 قميصي مسرودةٌ من حديدِ
 وهل يزول اغترابه، لو جمع اموال الدنيا، أو حصل على ولاية واتسعت
 آماله وامتد نفوذه الى بلاد شاسعة واصبح من أمراء عصره وقواده،
 وخاض الحروب والغزوات متتصراً، فتوجته أكاليل الغار؟ ام كان هذا
 وذاك عذراً لتبديد طاقة الاغتراب في نفسه، والهروب من ذاته، والبحث
 عن موازنة بين الواقع والطموح، وبين المثال والتحول، وبين الحلم
 والحقيقة؟

(١) - (١٠) الديوان، ج ١، ص ٣٢٢. ج ٢، ص ٢٣. ج ٤، ص ٤٥، ٤٥. ج ١،
 ص ١٨٣، ١٩٣. ج ٤، ص ٢٥١، ١٤٣. ج ١، ص ١٩١. ج ٤، ص ٢٣٣.

(١١) خزانة الادب ٢ - ٣١٣ .

(١٢) - (١٨) الديوان، ج ١، ص ١٠٥. ج ٣، ص ٣٧٣. ج ١، ص ٢٧٠. ج ٤، ص ٧٠.
 ٢٣٣، ١٤٥. ج ١، ص ٣١٩.



مع تحيات أ. علاء الدين شوقي

الفهرس

٥	مقدمة
٩	المتنبي وال النقد الأدبي
١٧	المتنبي و حاسدوه
٥١	المتنبي و الحكمة
٦٧	رثاء الإنسان
٧٥	صفات السيف والنزعـة الحربية في شـعر المـتنـبي
٨٧	المـتنـبي و كـافـور
١٠١	الـشـاعـر و الـمـرأـة
١١٧	غـربـة المـتنـبي

من كتب المؤلف

الشعر العراقي الحديث - مرحلة وتطور
منشورات دار صادر - ط ١ ، بيروت ١٩٧٠ ، ط ٢ ، دار الرائد
العربي - بيروت ١٩٨٧ .

التكتسب بالشعر
منشورات دار الآداب - بيروت ١٩٧٠
الشعر والزمن
منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٧٥
الاصول الدرامية في الشعر العربي
منشورات وزارة الاعلام - بغداد ١٩٨٢

احمد الصافي النجفي (ظاهرة شعرية وعالم حر)
دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨٧
دراسات في النقد والأدب
دار الرائد العربي - بيروت ١٩٨٧

